المهندس

عبد الدائم الكحيل

أسرار الكون

بين العلم والقرآن

حقائق جديدة في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم



أسرار الكون

بين العلم والقرآن

الطبعة الأولى

1427 هـ - 2006 م

تم إصدار هذه الطبعة بإشراف:

موقع موسوعـة الإعجـاز العلمي في الـقرآن والسـنَّة

www.55a.net

مدير التوزيع: محمد لجين الزين ـ ص.ب:105 ـ حرستا ـ دمشق ـ سورية
البريد الإلكتروني: lujainzin@hotmail.co.uk
هاتف: +963 11 5311791 جوال: +963 93 503039

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

[فصلت: 33]

أسرار الكون

بين العلم والقرآن

المـهندس

عـبد الدائم الكحيـل

WWW.KAHEEL7.COM

مقدمة

الحمد لله الـذي أنعم علينا بهـذا القـرآن، وجعله نـوراً لنا في ظلمات هذه الحياة، وصلّى الله على هـذا النـبيّ الأميّ الـذي كـان القــرآنُ خُلُقَه وإمامَه وشــفاءَه ونــور قلبــه، وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليماً كثيراً.

إن أجمل لحظة يعيشها المؤمن عندما يتّخذ من العلم طريقاً للإيمـان بالله تعـالى واليقين بعَظَمَة كتابه ومعجزته الخالـدة. وما الحقائق العلمية والكونية الغزيرة التي يفيض بها القــرآن إلاّ وسـيلة هيّأها الله تبـارك وتعـالى لكـلّ مـؤمن لـيزداد بها إيماناً بهذا الخالق العظيم، ووسيلة لكلّ ملحد يرى من خلالها نور الإيمان ونور القرآن وصدق رسالة الإسلام.

وفي هذا البحث العلمي سوف نعيش مع آية جديدة ومعجـزة مبهـرة وحقـائق يقينيَّة تحـدث عنها القــرآن قبل أربعة عشر قرناً، ويأتي علماء الغرب اليوم في القرن الحادي والعشرين ليردِّدوها بحرفيتها!!

ولا نعجب إذا علمنا أن العلماء قد بدءوا فعلاً بالعودة إلى

نفس التعبير القرآني! وهذا الكلام ليس فيه مبالغة أو مغالطة، بل هو حقيقة واقعة تثبت لكل من يدَّعي بأن القرآن ليس معجزاً من الناحية العلمية والكونية، أن القرآن وإن كان كتاب هداية وتشريع، فهو كذلك كتاب علوم، كل عالم يجد فيه معجزة تناسب اختصاصه العلمي.

وفي هذه السلسلة من الأبحاث العلمية القرآنية سوف نعيش رحلة إيمانية في رحاب آيات هذا القرآن، وكيف يأتي العلم مصدّقاً لكتاب الله تعالى ومطابقاً له. بل إننا نرى دائماً تفوق القرآن على العلم، وذلك لأن القرآن كتاب الله ومعجزته الدائمة.

ومن خلال الحقائق العلمية الكونية في هذا البحث سوف نبحر في بعض الآيات التي تحدثت عن بناء السَّماء، وجاء العلم حديثاً ليؤكد أن الكون كلّه بناء محكم، ولا وجود فيه لأي خلل أو فراغ أو اضطراب.

فالعلماء يؤكدون الغنى الذي يظهره الكون في البنية المحكمة، ويؤكدون رؤيتهم للنسيج الكوني وكأنه نسيج حُبِك بمنتهى الإتقان والإبداع، وأن النجوم والمجرات تَظهر كاللآلئ التي تزيّن العقد.

وقد نعجب إذا علمنا أن القرآن الكريم قد تحدث عن كل هذه الحقائق بمنتهى الدقة والبيان والإيجاز والإعجاز. فالحقّ تبارك وتعالى يقول عن السَّماء: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 64]. هذه الآية العظيمة تؤكد أن السَّماء بناء، وهذا ما سنراه في الفقرات الآتية من هذا الكتاب.

أما النسيج الكوني فقد تحدث القرآن عنه أيضاً في قوله تعالى مُقْسِماً بالسَّماء: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: 7]. وقد تمكّن العلماء حديثاً جداً من رؤية الكون على مقاييس مكبّرة فظهر تماماً كالنسيج المحبوك، حتى إننا نجد أدق وصف للمشهد الذي رآه العلماء حديثاً هو الآية الكريمة:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، فتبارك الله مبدع الكون ومبدع هـذا النسيج المُحكم!

سوف نشاهد حديث القـرآن عن الـدخان الكـوني في مرحلة من مراحل الكـــون، وقد أثبت العلمـــاء بالـــدليل القـــاطع والتحليل المخبري لذرات غبار ملتقطة من الفضاء الخـارجي أن أدق وصف لهذه الذرات هو كلمة "دخان".

وهنا تتجلى عظمة القرآن الذي سبق العلماء إلى هـذا الاسم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْـتَوَى إِلَى السَّـمَاءِ وَهِيَ دُخَـانٌ فَقَـالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَـائِعِينَ﴾ [فصـلت: 11]. وفي هـذه الآية معجزتـان: الأولى: حـديث القـرآن عن الدخان في مرحلة من مراحل تطور الكون الكـون، وهـذا ما يؤكده العلماء اليوم. والثانية: حديث القرآن عن قول السماء في تلك المرحلة، وقد اكتشف العلمـاء حـديثاً أن الكـون في بداياته بعد الانفجار الكبير أصدر موجات صوتية!

إن وجود هذه الحقـائق العلمية والمكتشـفة حـديثاً في كتـاب أنـــزل قبل أربعة عشر قرنـــاً لهو دليل مـــادي على أن هذ القرآن كلام الله تعالى، وأنه كتاب صالح لكل زمـان ومكـان. إن كثيراً من المشككين بكتاب الله تعالى يدَّعون اليـوم بـأن القرآن لا يناسب عصرنا هـذا، بحُجَّة أن الآيـات الـتي تحـدثت عن الظواهر الكونية غير صحيحة من الناحية العلمية.

ولذلك فإن هذا البحث يمثل خطوة في تصحيح هـذه النظـرة لديهم، والحقائق الـتي سنشـاهدها والـتي سـنعتمد فيها على أقوال علمائهم في وكالة الفضاء "ناسـا" هي خـير دليل على التطابق الكامل بين ما توصل إليه العلماء اليوم، وبين ما جاء في كتاب الله عزّ وجلّ قبل مئات السنين.

وعسى أن تكـون هـذه السلسـلة العلمية القرآنية وسـيلة لتذكرة المـؤمن بعظمة كتـاب ربه سـبحانه وتعـالى، ووسـيلة لهداية غير المؤمن ليعلم أن القرآن هو الحـق. يقـول تعـالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُـوا بِـهِ فَتُخْبِتَ لَـهُ قُلُـوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَـادِ الَّذِينَ آمَنُـوا إِلَى صِـرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 54].

المهندس عبد الدائم الكحيل
www.kaheel7.com

بداية القصة

إن أروع اللحظات هي تلك التي يكتشف فيها المؤمن معجزة جديدة في كتاب الله تعالى، عندما يعيش للمرة الأولى مع فهم جديد لآية من آيات الله، وعندما يتذكر قول الحقّ عز وجلّ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 93].

وقد بدأت قصتي مع هذه السلسلة من الأبحاث عندما كانت تستوقفني آيات من كتاب الله تعالى لا أجد لها تفسيراً منطقياً أو علمياً، وبعد رحلة من البحث بين المواقع العلمية وما يجدُّ من اكتشافات في علوم الفلك والفضاء والكون، إذا بي أُفاجأ بأن ما يكتشفه العلماء اليوم قد تحدَّث عنه القرآن بمنتهى الوضوح والدقّة والبيان!

عندما بدأ العلماء باكتشاف الكون أطلقوا عليه كلمة «فضاء»، وذلك لظنّهم بأن الكون مليء «بالفراغ». ولكن بعدما تطورت معرفتهم بالكون واستطاعوا رؤية بنيته بدقة مذهلة، ورأوا نسيجاً كونياً محكماً ومترابطاً، بدءوا بإطلاق مصطلح جديد هو «بناء».

إنهم بالفعل بدءوا برؤية بناء هندسي مُحكم، فالمجرات وتجمّعاتها تشكّل لبنات وأساس هذا البناء، وتشترك هذه المجرات مع الغبار الكوني والدخان الكوني لتشكيل بناء شديد الإتقان.

كما بدءوا يتحدثون عن هندسة بناء الكون ويطلقون مصطلحات جديدة لم نعهدها من قبل مثل الجسور الكونية، والجدران الكونية، وأن هنالك مادة غير مرئية سمّوها بالمادة المظلمة، وهذه المادة تملأ الكون وتسيطر على توزع

المجرات فيه، وتشكل جسـوراً تربط هـذه المجـرات بعضـها ببعض.

لقد بـدءوا يطلقـون مصـطلحات غريبة أيضـاً، فالصـور الـتي رسـمتها أجهـزة السـوبر كمـبيوتر أظهـرت الكـون وكـأن المجرات فيه لآلِئ تزيّن العقد! لقد اكتشفوا أشياء كثيرة وما زالوا.

وفي كل يوم نجدهم يطلقـون أبحاثـاً جديـدة وينفقـون بلايين الـدولارات في سـبيل هـذه الاكتشـافات، بل ويؤكـدون هـذه الاكتشـافات عـبر آلاف الأبحـاث العلمية الـتي تطالعنا بها كل يوم مواقع الإنترنت والمجلات والصحف العلمية.

تطـابـق مذهل

ما أكثر الآيات التي استوقفتني طويلاً، فوقفتُ أمامها خاشعاً في محـراب جلالها وجمالهـا، متـأمِّلاً دقّـة بنائِها وإحكامهـا، وروعةَ أسلوبها وسحرها، ومتـدبِّراً دِلالاتها ومعانيهـا، ومتفكِّراً في عجائبها وعلومها ومعجزاتها.

كيف لا أقف هـــذا الموقف وأنا أمـــام أعظم وأجمل وأروع كتاب على الإطلاق، ألا وهو الكتاب الذي وضع الله تعالى فيه علمَه فقال: ﴿لَّـكِنِ اللّـهُ يَشْـهَدُ بِمَا أَنـزَلَ إِلَيْـكَ أَنزَلَـهُ بِعِلْمِـهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً﴾ [النساء: 166].



شكل (1) عندما ننظر إلى السماء من خلال المناظير المكبرة (التليسكوبات) نرى بناء محكماً من النجوم والغاز والغبار والدخان، وتظهر النجوم بألوان زاهية تزين السماء. فتأمل عظمة هذا البناء الكوني، وتأمل أيضاً كيف تحدث القرآن عنه بقوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: 27-28].



شكل (2) تأمل معي أخي القارئ عظمة البناء الكوني، ملايين الملايين من النجوم والمجرات والدخان الكوني جميعها يَملأ أرجاء الكون، فلا تجد أي فراغ أو خلل أو اضطراب ألا يدل ذلك على عظمة خالق الكون سبحانه وتعالى؟ يقول تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 3-4].

إنه علم الله الذي يعلم أسرار الكون والذي أودع في كتابه هذه الأسرار، وقال عنه: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [الفرقان: 6].

والعجيب جداً أن القرآن الكريم تحدث بدقة فائقة عن حقائق كونية نراها اليوم! والدلائل التي سنشاهدها ونلمسها في هذا البحث العلمي هي حجّة قوية جداً على ذلك.

سوف نضع أقـوال أهم البـاحثين والمكتشـفين على مسـتوى العـالم بحرفيتهـا، وبلغتهم الـتي ينشـرون بها أبحـاثهم، ومن على مـواقعهم على الإنـترنت، والـتي يمكن لكل إنسـان أن يرى ويتأمل هذه الأقوال مباشـرة. ونتأمل بالمقابل كلام الله الحقّ عزّ وجلّ، ونقارن ونتدبّر دون أن نحمِّل هـذه الآيـات ما لا تحتمله من التأويلات أو التفسيرات.

سوف نرى التطابق الكامل بين ما يكشـفه العلم اليـوم وبين ما تحدث عنه القـرآن قبل قـرون طويلة. ولكن قبل التعـرف إلى هـــذه الحقـــائق لا بـــدّ أن نقف على أحد الانتقـــادات المزعومة الـتي تُوجَّه للإعجـاز العلمي في القــرآن الكــريم والسنّة النبوية المطهرة.

هجوم على الإعجاز العلمي

صدرت بعض المقـالات مـؤخراً يتسـاءل أصـحابُها: إذا كـانت هــذه الحقــائق العلمية والكونية موجــودة في القــرآن منذ 1400 سـنة، فلمـاذا تنتظـرون الغـرب حـتى يكتشـفها ثم تقولون إن القرآن قد سبقهم للحديث عنها؟ ولمـاذا تحمّلـون النص القرآني ما لا يحتمل من التأويل والتفسير؟

والجواب نجده في نفس الآيات الـتي جـاء فيها التطـابق بين العلم والقرآن، فهذه الآيات موجهة أساسـاً للملحـدين الـذين لا يؤمنــون بــالقرآن، خــاطبهم بها الله تعـالى بــأنهم هُمْ مَن سيرى هذه الحقائق الكونية، وهم من سيكتشفها.

لذلك نجد البيان الإلهي يقول لهم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآَفَـاقِ وَفِي أَنفُسِـهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَـقُّ أَوَلَمْ يَكْـفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

هذه الآية الصريحة تخـاطب أولئك الـذين يشكّكون بـالقرآن، وأن الله سيريهم آياته ومعجزاته حـتى يـدركوا ويسـتيقنوا أن هذا القرآن هو الحق، وأنه كتاب الله تعالى. ويخـاطبهم أيضـاً بل ويناديهم بقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَـانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [النساء: 82].

إذن لو كـان هـذا القـرآن من عند بشر أي من عند غـير الله تعـالى، لرأينا فيه الاختلافـات والتناقضـات، ولكن إذا رأينـاه موافقـاً ومطابقـاً للعلم الحـديث ولا يناقضه أبـداً، فهـذا دليل علمي على أنه صادر من الله تبارك وتعالى فهو خالق الكون وهو منَزّل القرآن.

وهـذا هو هـدف الإعجـاز العلمي، أن نـرى في هـذا القـرآن التناسق في كلّ شـــــــيء، ولا نجد فيه أي خلل أو خطأ أو تناقض، وهذه مواصـفات كتـاب الله تعـالى. بينما كتب البشر مهما أتقنها مؤلفوها ســـــيبقى فيها التنـــــــاقض والاختلاف والأخطاء.

وأكبر دليل على صِدق هذه الحقيقة القرآنية أن العلماء بدءوا يغيّرون مصـطلحاتهم الكونيـة: مثل (فضـاء) إلى (بنـاء). إذن هم اكتشـفوا أنهم مخطئـون في هـذه التسـمية فعـدلوا عنها إلى ما هو أدقّ وأصحّ منها بعدما اكتشفوا المادة المظلمة.

ولكن القــرآن المنَــزَّل من الــذي يعلم أســرار الســماوات والأرض، أعطانا التعـبـير الــدقيق مباشــرة، وهو القائل عن كتابه الكـريم: ﴿ لَا يَأْتِيـهِ الْبَاطِـلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَلَا مِنْ خَلْفِـهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصّلت: 42].

إن هذه الاكتشافات لو تمَّت على أيدي مؤمنين ثم قــالوا إنها موجــودة في القــرآن إذن لشــكّك الملحــدون بمصــداقيتها، وقـالوا بأنها غـير صـحيحة. ولكن المعجـزة أنك تجد من ينكر القـرآن يـردِّد كلمـات هـذا القـرآن وهو لا يشـعر!! وفي هـذا إعجاز أكبر مما لو تمَّ الاكتشاف على أيدي المؤمنين.

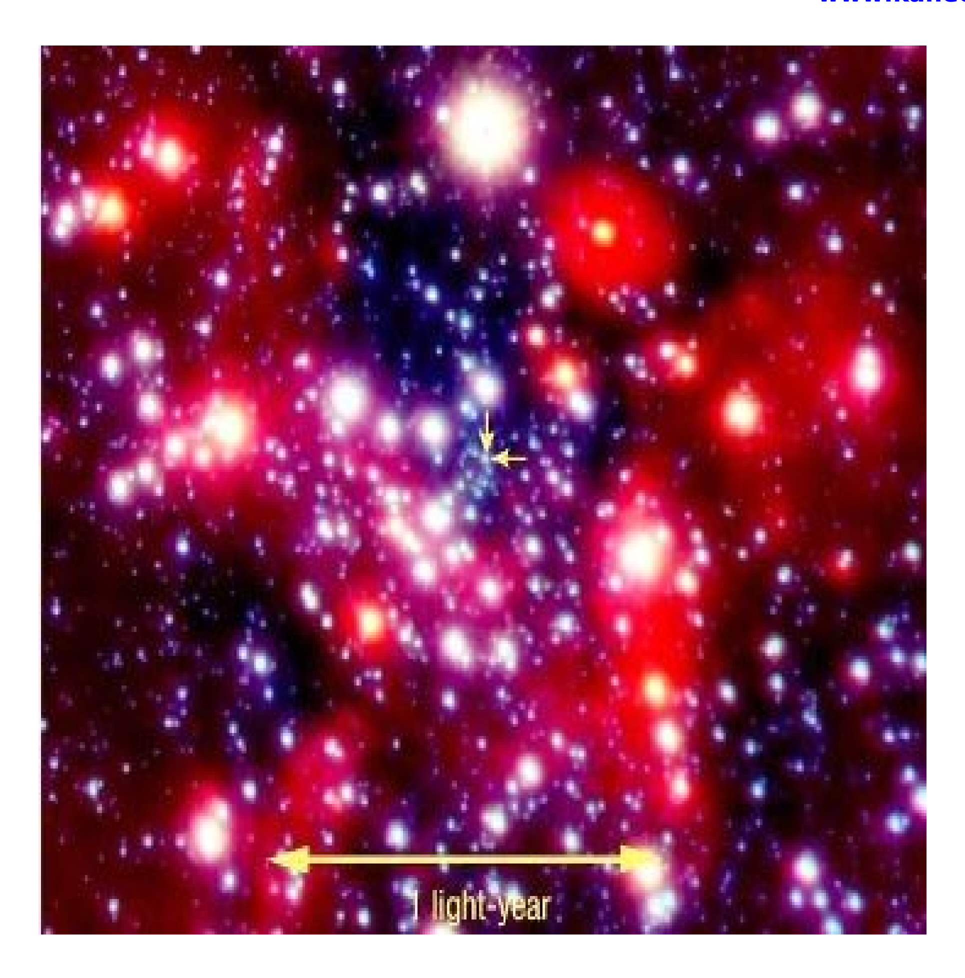
ولو تتبعنا آيــات القــرآن الكونية نجــدها غالبــاً ما تخــاطب الملحدين البعيـدين عن كتـاب الله والمنكـرين لكلامه تبـارك وتعالى. فـالمؤمن يـؤمن بكل ما أنـزل الله سـبحانه وتعـالى، وهذه الحقائق العلمية تزيده يقيناً وإيماناً بخـالق هـذا الكـون ومبدعه وهو القائل عن إبـداع خلقـه: ﴿صُـنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 88].

أما الملحد الـذي ينكر القـرآن ولا يـؤمن برسـالة الإسـلام، فيجب عليه أن ينظـرَ ويتأمَّلَ ليصل إلى إيمـان عن قناعـة، وليدرك من وراء هذه الحقائق صدق هذا الدين وصـدق خـاتم النبيّين عليه أفضل الصلاة والتسليم.

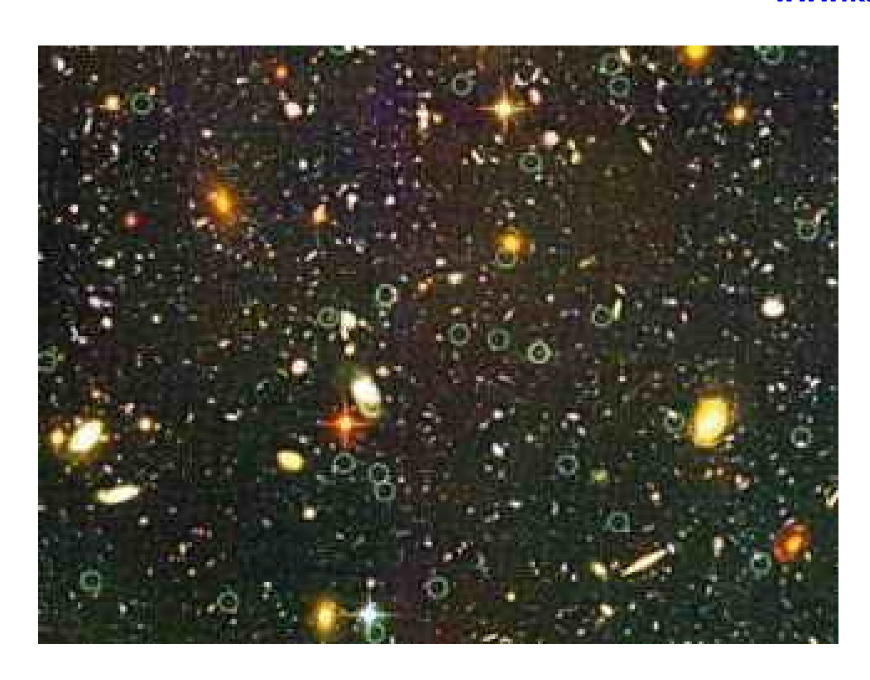
عظمة الكون

هنالك أنواع متعددة من المجرات تسـبح في الكـون وتشـكل لبنات بناء في هذا الكون الواسع. وتوجد في الكـون المـرئي من هذه المجرات أو "اللبنات" مئـات البلايين!! وبـالرغم من ذلك لا تشكل إلا أقل من 5 بالمئة من البناء الكـوني، أما الـ 95 بالمئة الباقية فهي مـادة مظلمة لا تُـرى. إن كل مجـرة من هـذه المجـرات تحـوي أكـثر من مئة ألف مليـون نجم! فسبحان مبدع هذا البناء العظيم.

إن الضـوء يقطع في الثانية الواحـدة 300 ألف كيلو مـتراً تقريبـاً، وهو يقطع في سـنة كاملة 9.5 تريليـون كيلو مـتراً تقريبـاً، والمجـرَّة الـتي تبعد عنا بليـون سـنة ضـوئية، يحتـاج ضوؤها للوصول إلينا إلى بليون سنة! خلال هذا الـزمن يقطع ضـوء هـذه المجـرة مسـافة قـدرها 9.5 ألف مليـون مليـون مليون كيلو مترا!!



شكل (3) الكون كما يظهر بالأجهزة المكبرة الحديثة، وتظهر فيه النجوم والغبار والدخان الكوني، إنها عظمة الخالق تبارك وتعالى. إنه بناء مُحكم لا وجود فيه للخلل أو الفراغ أو الفروج والشقوق. إن هذا المشهد المهيب ينبغي أن يكون وسيلة لمزيد بالخالق تبارك وتعالى والخوف من عقابه، كيف لا وهو القائل عن عباده المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191].



شكل (4) المجرات تزيّن الكون كما تزين اللآلئ العقد:
في هذه الصورة تظهر المجرات البعيدة بألوانها الحقيقية تماماً كالزينة، وقد حدثنا عنه القرآن عن هذا المشهد قبل أن يراه العلماء بقرون طويلة في قوله تعالى:
﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: 6].

الكون لبنات بناء

والآن سوف نستعرض مثالاً على كلمات ردّدها علماء غربيّون حديثاً، وهي موجودة في القرآن قبل مئات السنين! ففي أحد الأبحاث التي أطلقها المرصد الأوروبي الجنوبي يصرّح مجموعة من العلماء بأنهم يفضّلون استخدام كلمة [لبنات بناء من المجرات] بدلاً من كلمة [مجرَّات]، ويؤكدون أن الكون مزيَّن بهذه الأبنية تماماً كالخرز المصفوف على العقد أو الخيط!!

ففي هـذا البحث يقـول الـدكتور بـول ميلر مكتشف النسـيج الكوني وزملاؤه، يقولون بالحرف الواحد:

"إن المجـرات الأولى، أو بـالأحرى لبنـات البنـاء الأولى من المجرات، سوف تتشكل في خيوط النسيج. وعندما تبدأ ببث الضوء، سوف تُرى وهي تحدّد مختلف الخيوط غـير المرئيـة، وتشبه إلى حد كبير الخرز على العقد".

السَّماء بناء

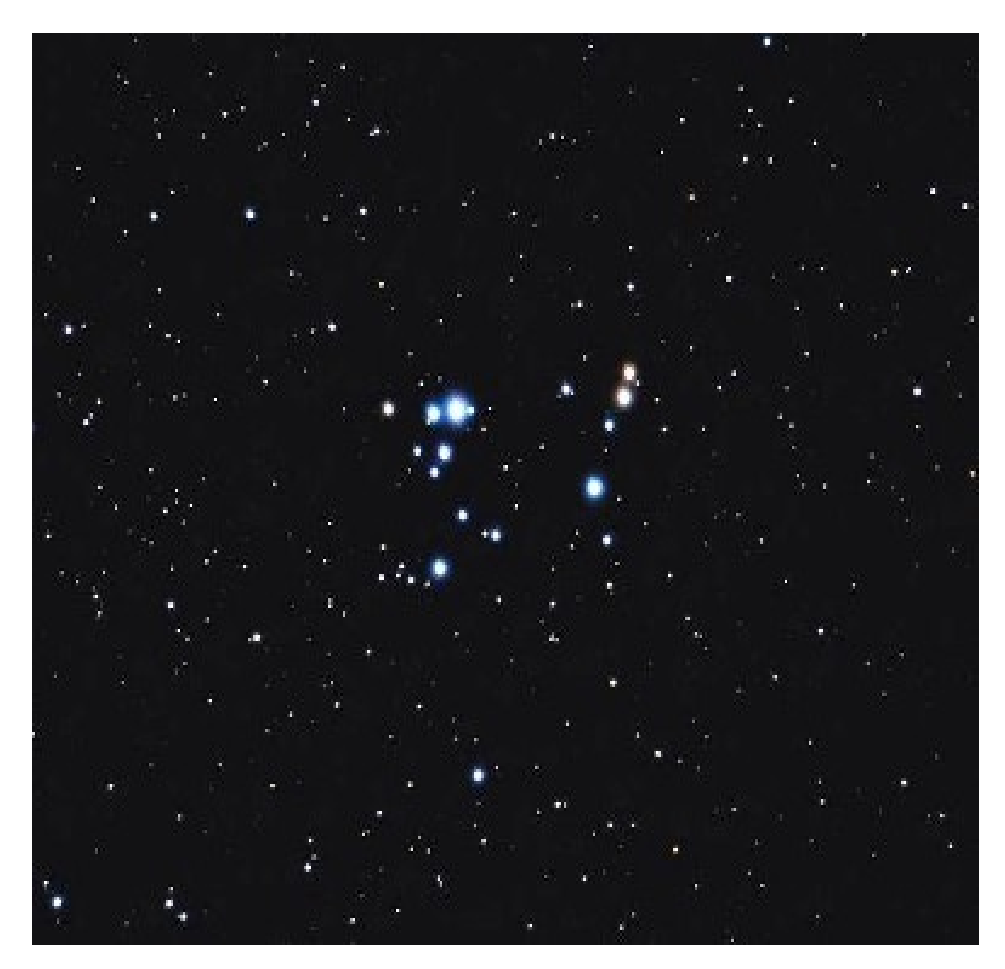
وبعد أن أبحـرتُ في الكثـير من المقـالات والأبحـاث العلمية والصادرة حديثاً حول الكون وتركيبـه، تأكـدتُ أن هـذا العـالِم ليس هو الوحيد الذي يعتقد بذلك، بل جميع العلمـاء يؤكـدون حقيقة البنـاء الكـوني، ولا تكـاد تخلو مقالة أو بحث في علم الفلك من استخدام مصطلح [بنية الكون]. وهذا يدل على أن العلماء متفقون اليوم على هـذه الحقيقة العلميـة، أي حقيقة البناء. وذهبتُ مباشرة إلى كتاب الحقائق – القرآن، وفتَّشـتُ عن كلمة ﴿بناء﴾، وما هي دلالات هذه الكلمة.

وكـانت المفاجـأة أن هـذه الكلمة وردت كصـفة للسّـماء في قوله تعـالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَـرَاراً **وَالسَّـمَاء بِنَاء** وَصَـوَّرَكُمْ فَأَحْسَـنَ صُـوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَـاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَـارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـالَمِينَ﴾ [غـافر: 64]. وفي آية أخـــرى نجد قوله تعـــالىَ: ﴿الَّذِي جَعَــلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًــا **وَالسَّمَاءَ بِنَاءً**﴾ [البقرة: 22].

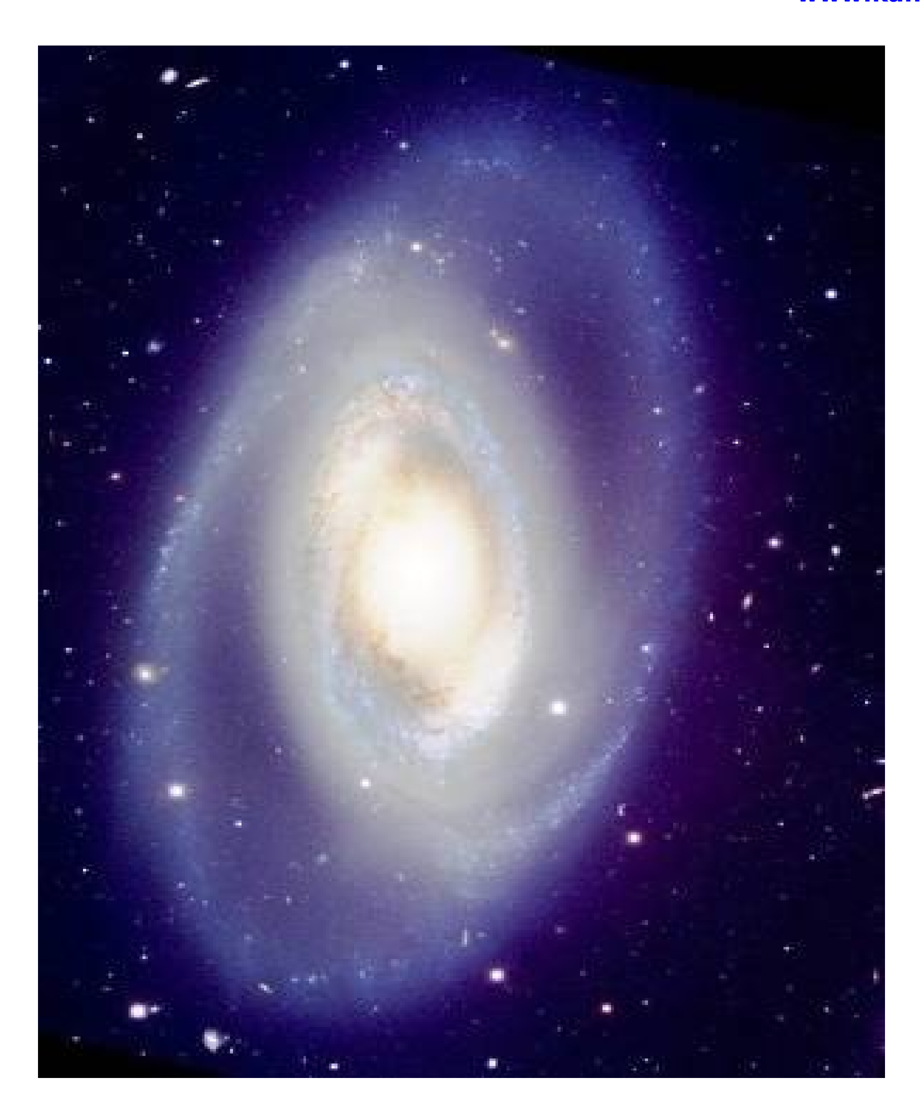
وسـبحان الله تعـالى! كلمة يسـتخدمها القـرآن في القــرن السابع الميلادي، ويأتي العلماء في القرن الحادي والعشـرين ليستخدموها بحرفيتها بعدما تأكـدوا وتثبَّتـوا بـأن هـذه الكلمة تعبِّر تعبـيراً دقيقـاً عن حقيقة الكـون وأنه بنـاء محكم، فهل هذه مصادفة أم معجزة؟! يقول تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَـــاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَـــوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101].

لآلئ تزيِّن العقد!

عندما رأى العلماء هذا الكون بمناظيرهم المقربة والمكــبرة، ورأوا ما فيه من نجوم ومجرات وغبار كوني وجــدوا أنفســهم أمام بنـاء هندسي كـوني فسـارعوا لإطلاق مصـطلح [البنـاء] على هذا الحشد الضخم من المجرات والدخان والغبار، ورأوا فيه ألواناً وزينة فشبهوها باللآلئ!



شكل (5) تمثل المادة المظلمة أكثر من 95% من حجم الكون، هذه المادة لا نراها ولكنها موجودة وهي التي تسيطر على توزع المادة المرئية في الكون. وحجم المادة المرئية في الكون أقل من 5% وهنا تتجلى عظمة القرآن عندما تفوق على العلم بتسمية السماء ﴿بناء﴾ وليس كما يسميها العلماء "فضاء".



شكل (6) مجرة حلزونية تسير في الكون وفق نظام محكم، وتبعد أكثر من 130 ألف سنة ضوئية!! ويوجد أكثر من مئة ألف مليون مجرة في الكون أكبر وأصغر من هذه. إن السماء كما يقول العلماء بناء محكم بل السماء تظهر غنى في البناء، وهذا ما حدثنا عنه القرآن بل إن البارئ سبحانه قد أقسم بهذا البناء: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: 5].

وفي أقوال العلماء عندما تحـدثوا عن البنـاء الكـوني نجـدهم يتحدثون أيضـاً عن تشـبيه جديد وهو أن المجـرات وتجمعاتها تشــكل منظــراً رائعــاً بمختلف الألــوان الأزرق والأصــفر والأخضر مثل الخـرز على العقـد، أو مثل اللآلئ المصـفوفة على خيط. أي أن هؤلاء العلماء يرون بناءً وزينةً.

ففي إحــدى المقــالات العلمية نجد كبــار علمــاء الفلك في العالم يصرحون بعدما رأوا بأعينهم هذه الزينة:

"إن المـادة في الكـون تشـكل نسـيجاً كونيـاً، تتشـكل فيه المجرات على طول الخيوط للمادة العادية والمادة المظلمة مثل اللآلئ على العقد".

إذن في أبحاثهم يتساءلون عن كيفية بناء الكون، ثم يقـررون وجود بناء محكم، ويتحدثون عن زينة هذا البناء. ويقـررون أن الكون يمتلئ بالمادة العادية المرئية والمادة المظلمة التي لا تُـرى، أي لا وجـود للفـراغ أو الشـقوق أو الفـروج فيـه. لقد وجدتُ أن القرآن يتحدث بدقة تامة وتطابق مـذهل عن هـذه الحقائق في آية واحدة فقط!!!

والأعجب من ذلك أن هــذه الآية تخـاطب الملحــدين الــذين كذبوا بالقرآن، يخاطبهم بل ويـدعوهم للنظر والتأمل والبحث عن كيفية هذا البناء وهذه الزينة الكونيـة، وتأمُّل ما بين هـذه الزينة كإشارة إلى المادة المظلمة، تماماً مثلما يرون!!!

يقــول تعــالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُـرُوا إِلَى السَّـمَاء فَــوْقَهُمْ **كَيْــفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا** وَمَا لَهَا مِن فُــرُوجٍ﴾ [ق: 6]. والفــروج في اللغة هي الشقوق.

واليوم نحن نشاهد من خلال الصـور البنـاء الكـوني كما ظهر للعلماء في أضخم عملية حاسوبية، وتظهر المجرات كلبنــات البناء التي تزين السماء، وتظهر المادة المظلمة بلون أسود.

إذن تأمل معي قـول العلمـاء بـأن السـماء بنـاء، ومزينـة، ولا فـروج أو فـراغ فيهـا، وتأمل كـذلك قـول الله تعـالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُـرُوا إِلَى السَّـمَاء فَـوْقَهُمْ كَيْـفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُـرُوجٍ﴾، ألا تصـور لنا الآية الكريمة ما يـراه العلمـاء اليـوم بأحدث الأجهزة؟

وتأمل أيضـاً أخي القـارئ كيف يتحــدث هـؤلاء العلمــاء في أحدث اكتشـاف لهم عن كيفية البنـاء لهـذه المجـرات، وكيف

تتشـكل، وكيف تُـزيّن السّـماء كما تـزين اللآلئ العقد! حـتى الفراغ بين المجرات والذي ظنّه العلماء أنه خالٍ تماماً، اتضح حـديثاً أنه ممتلئ تمامـاً بالمـادة المظلمـة، وهـذا يثبت أن السماء خالية من أية فروج أو شقوق أو فـراغ، وبما يتطـابق تماماً مع النص القرآني الكريم.

كلمات قرآنية في مصطلحات الغرب!

وسبحان الذي أنزل هذا القرآن! الحقُّ تعـالى يطلب منهم أن ينظروا إلى السماء من فـوقهم، ويطلب منهم أن يبحثـوا عن كيفية البناء وكيف زيَّنها، وهم يتحـدثون عن هـذا البنـاء وأنهم يرونه واضحاً، ويتحدثون عن شكل المجـرات الـذي يبـدو لهم كالخرز الذي يزين العقـد. ونجـدهم في أبحـاثهم يسـتخدمون نفس كلمات القرآن!

ففي المقالات الصـادرة حـديثاً نجد هـؤلاء العلمـاء يطرحـون سـؤالاً يبدءونه بنفس الكلمة القرآنيـة: «كيف تشـكل البنـاء الكـــوني». ويســـتخدمون نفس الكلمة القرآنية وهي كلمة «كيـــف» ولو قرأنا هـــذه المقالة نجد أنها تتحـــدث عن بنية الكون وهو ما تحدثت عنه الآية: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾!

حتى إننا نجد في القرن الحـادي والعشـرين الجـوائز العالمية تُمنح تباعـاً في سبيل الإجابة عن سـؤال طرحه القـرآن قبل أربعة عشر قرنـاً، أليس هـذا إعجـازاً مبهـراً لكتـاب الله تعالى؟!

ولكن الذي أذهلـني عنـدما تـأملتُ مشـتقات هـذه الكلمة أي كلمة ﴿بناء﴾، أن المصـطلحات الـتي يسـتخدمها العلمـاء وما يؤكدونه في أبحاثهم وما يرونه يقيناً اليوم، قد سبقهم القرآن إلى استخدامه، وبشكل أكثر دقة ووضوحاً وجمالاً.

ولو بحثنا في كتاب الله جلّ وعلا عن الآيات التي تناولت بنـاء الكون، لوجدنا أن البيـان الإلهي يؤكد دائمـاً هـذه الحقيقة أي حقيقة البناء القوي والمتماسك والشديد. يقول تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: 27].

والعلماء يؤكدون أن القـوى الموجـودة في الكـون تفـوق أي خيـال. ويمكن للقـارئ الكـريم الرجـوع للمراجع في نهاية البحث لأخذ فكـرة عن ضـخامة القـوى الـتي تتحكم بـالكون. وفي هذه الآية الكريمة إشـارة واضـحة إلى هـذه القـوى من خلال كلمة ﴿أَشدُّ﴾، والتي تعني القوة والشدة.

بل إن الله عزّ وجـلّ قد أقسم بهـذا البنـاء فقـال: ﴿وَالسَّـمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: 5]. والله تعالى لا يُقسم إلا بعظيم.

وهذا هو أحد علماء الغرب يؤكد أن الكـون بأكمله عبـارة عن بناء عظيم فيقول:

«إن من أكثر الحقائق وضوحاً حول الكون أنه يُظهر غِنىً في البناء على كافة المقاييس من الكواكب والنجـوم والمجـرات وحـتى تجمعـات المجـرات والتجمعـات المجرية الكبـيرة الممتدة لعدة مئات من الملايين من السنوات الضوئية».

الإعجاز العلمي أرقى أسلوب لخطاب الملحد

هؤلاء العلماء ينكرون كلام الله تعالى وهو القرآن، ويقولون إنه من صنع محمد صلى الله عليه وسلم!!! وربما لا يؤمنون بوجود خالق لهذا الكون، لأنهم في حالة تخبّط واختلاط.
والعجيب أن الله تعالى يصف حالهم هذه في قوله عزّ وجلّ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق: 5]. أي أن هؤلاء المكذبين بالقرآن وهو الحقّ، هم في حيرة واختلاط من أمرهم وفي حالة عدم استقرار.

وعلى الـرغم من ذلك يـدعوهم الله تعـالى في الآية التالية مباشرة للنظر والتأمل في كيفية بنـاء وتـزيين الكـون، ويؤكد لهم أنه هو الذي بنى هذه المجـرات وهو الـذي جعلها كالزينة للسماء، يقول تعالى: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾، بل ويسخر لهم أسباب هذا النظر وأسباب هذه الاكتشـافات، وذلك ليسـتدلوا بهذا البناء على الباني سبحانه وتعالى.

وليَخرجـوا من حـيرتهم وتخبُّطهم ويتفكـروا في هـذا البنـاء

الكوني المتناسق والمُحكم، ليستيقنوا بوجود الخـالق العظيم تبارك وتعالى. والسـؤال: أليست هـذه دعـوة من الله تعـالى بلغة العلم للإيمان بهذا الخالق العظيم؟

إن الدين الذي يتعامل مع غير المسلمين بهذا المنهج العلمي للإقنــاع، هل هو دين تخلف وإرهــاب، أم دين علم وتســامح وإقنـاع؟!! ألا نـرى في خطـاب الله تعـالى لغـير المسـلمين خطاباً علميـاً قمَّةَ التسـامح حـتى مع أعـداء الإسـلام؟ أليس الإعجاز العلمي أسلوباً حضارياً للدعوة إلى الله تعالى؟

إذا كان الإعجـاز العلمي والـذي هو الأسـلوب الـذي تعامل به القرآن مع أعدائه ودعاهم للنظر والتدبر، إذا كان هذا الإعجاز ـ كما يقـول بعضـهم ـ وسـيلة غـير ناجحة للـدعوة إلى الله تعالى، إذن ما هي الوسـيلة الـتي نخـاطب بها الملحـدين في عصر العلم والمادة الذي نعيشه اليوم؟

يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَـنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125].

في رحاب تفسير هذه الآية

قـال الإمـام الطـبري رحمه الله تعـالى في تفسـيره لمعـنى البناء: "وقوله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ يقـول تعـالى ذكـره: أفلم ينظر هـؤلاء المكـذبون بـالبعث بعد المـوت المنكـرون قدرتنا على إحيـائهم بعد بلائهم، ﴿إِلَى السَّـمَاءِ فَـوْقَهُمْ كَيْـفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ فسوَّيناها سـقفاً محفوظاً، وزيَّناها بـالنجوم؟ ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ يعني : وما لها من صدوع وفتوق".

وقـال الإمـام القرطـبي في قوله تعـالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُـرُوا إِلَى السَّــمَاءِ فَــوْقَهُمْ﴾ "أي نظر اعتبــار وتفكر وأن القــادر على إيجادها قـادر على الإعـادة ﴿كَيْـفَ بَنَيْنَاهَا﴾ فرفعناها بلا عمد ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بــالنجوم ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُــرُوجٍ﴾ جمع فــرج وهو الشقّ. وقــال الكســائي ليس فيها تفــاوت ولا اختلاف ولا فتوق".

وفي تفسير الطبري رحمه الله تعـالى نجـده يقـول: "القـول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾، قـال أبو جعفر: وإنما سميت السـماء سـماءً لعلوِّها على الأرض وعلى سـكانها من خلقه، وكل شيء كان فـوق شـيء آخر فهو لما تحته سـماة. ولـذلك قيل لسـقف الـبيت: سـماوة، لأنه فوقه مرتفع عليه. فكذلك السماء سميت للأرض سماء، لعلوِّها وإشرافها عليها. وعن قتادة في قول الله: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ قال: جعل السماء سقفاً لك".

ونتساءل الآن: أليس ما فهمه المفسرون رحمهم الله تعـالى من هذه الآيات، هو ما يكتشفه العلماء اليوم؟ أليست المـادة تملأ الكون؟ أليست النجوم والمجـرات كالزينة في السَّـماء؟ أليست هـــذه الســـماء خالية من أي فـــروج أو شـــقوق أو فراغات؟ وهذا يؤكد وضوح وبيان النص القـرآني وأن كل من يقــرأ كتــاب الله تعــالى، يــدرك هــذه الحقــائق كــلٌّ حسب اختصاصه وحسب معلومات عصره.

تطور الحقائق العلمية

في القرن السابع الميلادي عندما نـزل القـرآن الكـريم، كـان الاعتقاد السـائد عند النـاس أن الأرض هي مركز الكـون وأن النجـوم والكـواكب تـدور من حولهـا. فلم يكن لأحد علم ببنية الكـــون أو نشـــوئه أو تطـــوره. لم يكن أحد يتخيل الأعـــداد الضخمة من المجرات، بل لم يكن أحد يعـرف شـيئاً عن بنية هذه المجرات.

وبقي الوضع كما هو حـــتى جـــاءت النهضة العلمية الحديثـــة، عنـدما بـدأ العلمـاء بـالنظر إلى السـماء عـبر التليسـكوبات المكبرة، وتطـور علم الفضـاء أكـثر عنـدما اسـتخدم العلمـاء وسائل التحليل الطيفي لضوء المجرات البعيدة. ثم بدأ عصر جديد عندما بـدأ هـؤلاء البـاحثون اسـتخدام تقنيـات المعالجة بالحاسوب للحصول على المعلومات الكونية.

ولكن وفي مطلع الألفية الثالثة دخل علم الفضـــاء عصـــراً جديداً باستخدام السوبر كومبيوتر، عندما قام العلمـاء برسم

مخطط للكون ثلاثي الأبعـاد، وقد كـانت النتيجة اليقينية الـتي توصل إليها العلماء هي حقيقة أن كل شـيء في هـذا الكـون يمثل بناءً مُحكماً.

ولكن الذي استوقفني طويلاً قوله تعالى يصِف هذه النجـوم: ﴿وَزَيَّنَّا السَّـمَاءَ الـدُّنْيَا بِمَصَـابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِـكَ تَقْـدِيرُ الْعَزِيـزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصـلت: 12]._ وقد أدهشـني بالفعل أن العلمـاء التقطوا صوراً رائعة للنجوم شـديدة اللمعـان أو الكـوازرات، وأدركـوا أن هـذه النجـوم تضـيء الطريق الـذي يصل بيننا وبينهـا. لـذلك أطلقـوا عليها اسـماً جديـداً وهو «المصـابيح»، وسبحان الذي سبقهم إلى هذا الإسم فقال عن النجوم الـتي تزين السماء: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [فصلت: 12].

تأمل عزيـزي القـارئ هـذه النجـوم الـتي سـماها العلمـاء "بالمصـابيح" ولكن القـرآن قد سـبقهم إلى هـذا الاسم قبل ذلك في قوله تعالى: َزَيَّنَّا السَّمَاءَ الـدُّنْيَا بِمَصَـابِيحَ﴾ [فصـلت: 12]. أليس القرآن هو كتاب الحقائق الكونية؟؟

مَن الذي علّم محمداً هذه الكلمات؟

تساؤلات نكررها دائماً في هذه الأبحاث وهو: لو كان القـرآن من تـــأليف محمَّد عليه صـــلوات الله وســلامه، إذن كيف اسـتطاع وهو النـبيُّ الأميُّ أن يطـرح سـؤالاً على الملحـدين ويدعوهم للنظر في كيفية بناء الكون؟

وكيف حـــدَّد أن النجــوم تـــزيّن الســماء؟ ومن أين أتى بمصطلحات علمية مثل ﴿بناء﴾ و ﴿مصـابيح﴾!؟ بل كيف علم بـأن الكـون لا يوجد فيه أية فراغـات أو شـقوق أو فـروج أو تفــاوت؟ من الــذي علَّمه هــذه العلــوم الكونية في عصر الخرافات الذي عاش فيه؟

إن وجود تعابير علمية دقيقة ومطابقة لما يراه العلماء اليـوم دليل على إعجاز القرآن الكـوني، ودليل على السـبق العلمي لكتاب الله تعالى في علم الفلك الحديث.

القرآن أول كتاب يربط بناء الكون بتوسّعه

وفي كتاب الله تعالى نجد أن كلمة ﴿بناء﴾ ارتبطت دائماً بكلمة ﴿السماء﴾، وكذلك ارتبطت بزينة الكون وتوسعه، يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: 47].

والعجيب أننا لا نكاد نجد بحثاً حديثاً يتناول البناء الكوني، إلا ونجدهم يتحدثون فيه عن توسع الكون!! وهذا ما فعله القرآن تماماً في هذه الآية العظيمة عندما تحدث عن بنية الكون ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ وعن توسع الكون ﴿لَمُوسِعُونَ﴾.

أي أن القرآن هو أول كتاب ربط بين بناء الكون وتوسعه. ويمكن للقارئ الكريم أن يطلع على بعض المقالات في نهاية البحث من مصادرها الأساسية ليرى هذا الربط في الأبحاث الصادرة حديثاً.

وسؤالنا من جديد: ماذا يعني أن نجد العلماء يستخدمون التعبير القرآني بحرفيَّته؟ إنه يعني شيئاً واحداً وهو أن الله تعالى يريد أن يؤكد لكل من يشكّ بهذا القرآن، أنهم مهما بحثوا ومهما تطوروا لا بدّ في النهاية أن يعودوا للقرآن!

القرآن يحدّد من سيكتشف البناء الكوني

هنالك إشارة مهمة في هذه الآيات وهي أنها حددت من سيكتشف حقيقة البناء الكوني، لذلك وجَّهت الخطاب لهم. ففي جميع الآيات التي تناولت البناء الكوني نجد الخطاب للمشككين بالقرآن، ليتخذوا من اكتشافاتهم هذه طريقاً للوصول إلى الله واليقين والإيمان برسالته الخاتمة.

واستمع معي إلى هذا البيان الإلهي الذي يدعو الناس لعبادة الله ويذكرهم ببناء السماء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا **وَالسَّمَاءَ بِنَاءً** وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

 [البقرة: 21-22].

كـذلك يتحـدث القـرآن عن جحـود الملحـدين وكيف يـذكرهم ببناء السماء: كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآَيَـاتِ اللَّهِ يَجْحَـدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَـرَارًا وَالسَّـمَاءَ بِنَـاءً وَصَـوَّرَكُمْ فَأَحْسَـنَ صُـوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَـاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَـارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَـالَمِينَ [غـافر: 63-64]. وهكـذا آيـات كثيرة جـاء فيها الإعجـاز والبيـان من الله تعـالى، فهل تخشع قلوبنا أمـام عظمة هـذا الكتـاب؟ وهل نسـتفيد من الإعجـاز العلمي لكتـاب الله عـزّ وجل في تعميق نظرتنا للكـون من حولنـا، وهل نسـتجيب لنـداء الحق جـلّ وعلا: أَفَلَا يَتَـدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [محمد: 24].

والسماء ذات الحُبُك

والآن نتناول الاكتشاف الحـديث جـداً حـول النسيج الكـوني، وكيف أن المجـرات وتجمعاتها تشـكل نسـيجاً مترابطـاً كالخيوط المحبوكة، ونتنـاول كيف أشـار القـرآن الكـريم إلى هـذا النسـيج في قوله تعـالى: وَالسَّـمَاءِ ذَاتِ الْحُبُـكِ [الذاريات: 7].

وسـوف نـرى أن القـرآن يتوافق مع الحقـائق العلمية الثابتة واليقينية، وأن هذا التوافق يشـهد على أن القـرآن كتـاب الله تعالى، وأنه معجز من الناحية العلمية والكونية.

وسـوف نعتمد في مراجع البحث على أهم علمـاء الغـرب الذين اكتشفوا هذا النسيج وألفوا مئات الأبحاث حوله، وعلى الأبحـاث المنشـورة حـديثاً، والموثقة من قبل أهم مواقع الفضـاء على شـبكة الإنـترنت مثل موقع وكالة الفضـاء الأمريكية ناسا.

يقول تعالى عن السماء: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُـكِ [الـذاريات: 7]. لقد قـرأتُ هـذه الآية منذ سـنوات وكرّرتها مـراراً في محاولة لفهم معنى الْحُبُكِ، فكانت توحي إليّ هـذه الكلمة بالنسيج المحبوك!

تفسير كلمة الحُبُك

ولكنــني رجعتُ إلى أقــوال المفســرين رحمهم الله تعــالى، ووجــدتُ أن أكــثرهم قد فهم من كلمة الْحُبُــكِ النســيج المحبــوك والشــديد والمحكم، وقــالوا بــأن قوله تعــالى: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ أي ذات الشكل الحسن وذات الشدة وذات الزينة وذات الطُّرُق.

فهــذا هو الإمــام القرطــبي رحمه الله تعــالى قد توسَّــع في تفسيره فعدّد سبعة معاني لكلمة الحُبُك الواردة في قوله تعالى: والسَّماء ذاتِ الحُبُــك. فهو يقــول: "وفي الحُبُــك أقوالٌ سبعة: الأول قــال ابن عبــاس وقتــادة ومجاهد: الخَلْــق الحسن المستوي، وقاله عكرمة قال: ألم ترَ إلى النســَّاج إذا نسَجَ الثوب فأجاد نسْجَه، يُقــال منه حبك الثــوب يحبِكه حبكاً، أي أجــاد نســجه. قــال ابن الأعــرابي كل شــيء أحكمتَــه وأحسنت عمله فقد احتبكته.

والثــاني: ذات الزينة، قاله الحسن وســعيد بن جبــير. وعن الحسن أيضا: ذات النجــوم وهو الثــالث. الرابع قــول الفــراء: الحُبُك تكسر كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة والماء القائم إذا مرت به الريح. الخــامس: ذات الشــدة، قاله ابن زيد وقــرأ: وبَنَيْنَــا فَــوْقَكُمْ سَــبْعاً شِــدَاداً [النبــأ: 12]. والمحبوك الشديد الخلق من الفرس وغيره.

وفي الحــديث: أن عائشة رضي الله عنها كــانت تحتبك تحت الــدرع في الصــلاة، أي تشد الإزار وتحكمه. الســادس: ذات الصــفاقة قاله خصــيف ومنه ثــوب صــفيق ووجه صــفيق بيِّن الصــفاقة. الســابع : أن المــراد بــالطرق المجرَّة الــتي في السماء سمِّيت بذلك لأنها كأثر المجر".

أين هذا النسيج

ولكنني كنتُ أتســاءل: أين هــذا النســيج المحكم في الســماء

ونحن لا نـــرى إلا النجـــوم والكـــواكب؟ وبحثت في بعض المراجع التي تتناول علم الفلك وبنية الكـون، ولم أعـثر على ما يشير إلى أي نسيج وقتها.

وبقيَت هذه الآية في ذاكرتي عدة سنوات ولا أجد لها تفسيراً دقيقــاً، حــتى قبل أيــام من كتابة هــذا البحث، عنــدما كنتُ أتصفَّح بعض المواقع العالمية عن بنية الكون، وآخر ما وصلوا إليه من حقــائق يقينية وثابتة عن الســماء، وكـانت المفاجـأة عنــدما قــرأتُ خــبراً أطلقه المرصد الأوروبي الجنــوبي من خلال موقعه على الإنـــــترنت عنوانه: "لمحة عن النســــيج الكوني المبكر جداً".

وبعـدما قـرأت الأسـطر الأولى من هـذه المقالة أدركتُ بـأن القرآن الكريم قد سبق هؤلاء العلمـاء بأربعة عشر قرنـاً إلى الحديث عن هذا النسيج الكوني وسمَّاه ﴿الْحُبُك﴾، بل إن الله تعالى قد أقسم به.

المدلول اللغوي لكلمة ﴿الحُبُك﴾

ولكن المسألة ليست بهذه البسـاطة، فنحن أمـام كتـاب الله تبارك وتعالى، والقول في كتاب الله بغـير علم يُهلك صـاحبه ويعرِّضه لغضب الله عزّ وجلّ. وأنه لا يجوز لي أبداً أن أحمِّل هذه الآية معنىً لا تحتمله، ولا ينبغي أن أسـوق نفسي باتجـاه فهم جديد لهــذه الآية أو غيرها من آيــات الله تعــالى، إلا إذا أيقنتُ حقيقةً أن الله تعالى يقصد هذا المعنى تماماً.

بل إن التسرُّع في تفسير آية من آيات القرآن بالاعتماد على نظريــات علمية ربما يثبت خطؤها في المســتقبل، قد يمسُّ كتـاب الله تعـالى، ويكـون حجَّة بيد أعـداء الإسـلام للنيل من هــذا الــدين الحــنيف، بهـدف التشـكيك في الإعجـاز العلمي للقرآن الكريم.

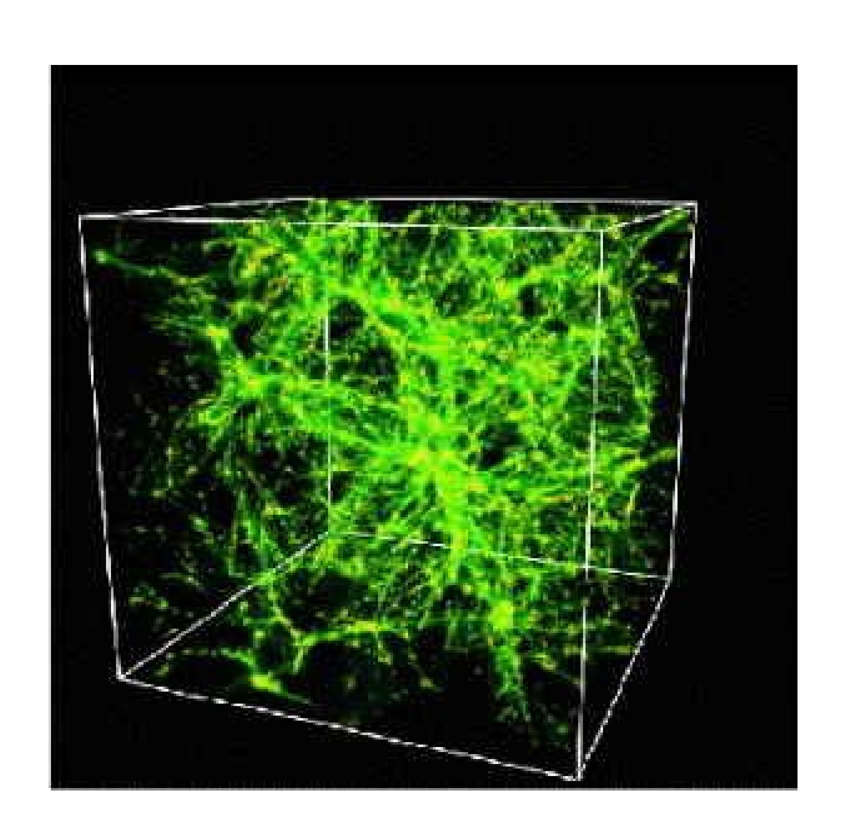
لذلك كـان لا بد من اللجـوء أولاً إلى اللغة العربية الـتي نـزل بها القرآن، والبحث عن معاني هذه الكلمـة، وهـذا ما فعلتـه. فبعد رحلة في عالم المعاجم اللغوية، وجدتُ بأن هذه الكلمة

قد جاءت من الفعل (حَبَكَ) وأن العرب تقول:

"حبك النساج الثوب" أي نَسَجَه، و(حَبَـكَ) الحائـكُ الثـوبَ أي أجــاد صــنعه وشــدّه وأحكمــه، و﴿الحُبُك﴾ هي جمع لكلمة (حبيكة) وهي الطريق.

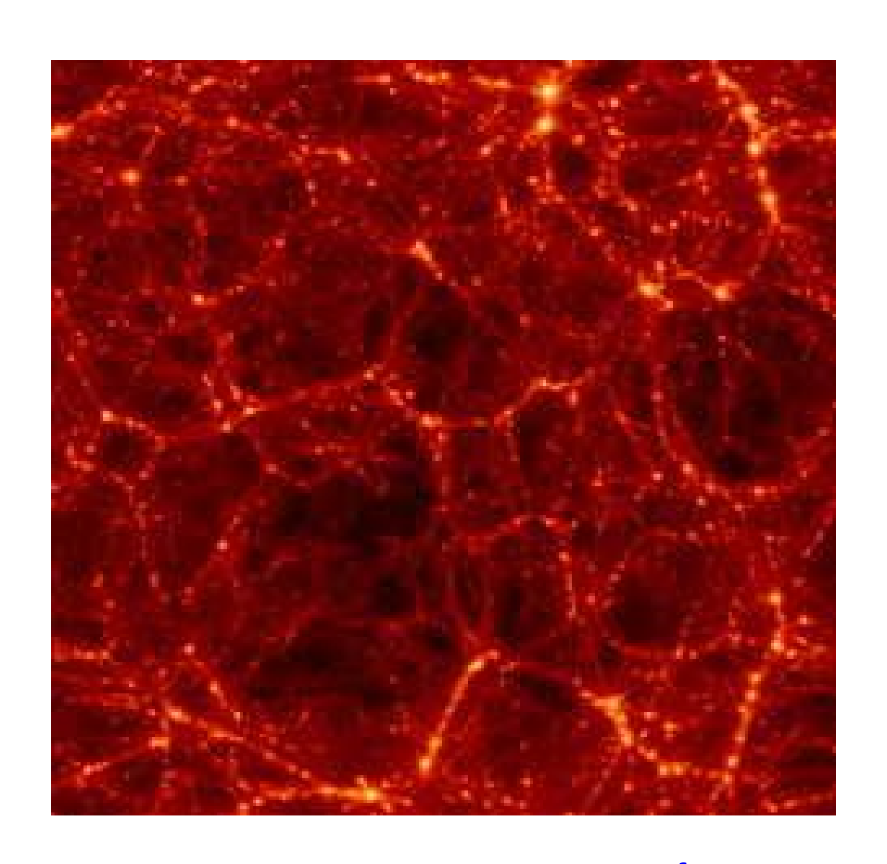
ونــــرى من خلال المعـــاني اللغوية لهـــذه الكلمة أن كلمة ﴿الحُبُك﴾ تتضمن معاني أساسية تدور حول النسيج والخيـوط المحبوكة بإحكام والمشدود بعضها إلى بعض.

ولكن المفســرين رحمهم الله تعــالى لم يــدركوا أبعــاد هــذا المعنى لأن العصر الـذي عاشـوا فيه لم تتـوفر لـديهم علـوم الفلك الحديثـة، بل إن فكـرة النسـيج الكـوني حديثة جـداً لا يعود تاريخها إلا إلى بضع سنوات فقط!



شكل (7) صورة النسيج الكوني كما ظهر في أضخم عملية حاسوبية في القرن العشرين. إن الخيوط التي

نراها تشبه النسيج المحبوك هي في الحقيقة بلايين المجرات التي تصطف وتتناسق بشكل محكم، وهذا ما سماه القرآن بـ (الحُبُك)، بل وأقسم بهذا النسيج فقال: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ) [الذاريات: 7].



شكل (8) صورة أخرى للنسيج الكوني، وتمثل النقاط المضيئة أماكن تجمع المجرات. وتظهر كالعُقد التي تربط الخيوط ببعضها، وكأننا أمام خيوط نسيجية مرتبطة ومحبوكة حبكاً متناهي الدقة. وتأمل عزيزي القارئ هذه الآية (والسماء ذات الحبك) ألا تعبّر تعبيراً دقيقاً عن هذه الصورة التي كلفت ملايين الدولارات؟!

مفاجأة جديدة

لقد أيقنتُ من خلال هذا المعنى اللغوي أن شكل هذا النسيج الكـوني لابـدَّ أن يكـون كالنسـيج ذي الخيـوط المتشـابكة والمربوطة بعضـها ببعض. وقد كـانت المفاجـأة الثانية عنـدما رأيتُ صورةٍ هذا النسيج كما رسمته أضخم أجهزة الكمـبيوتر، وكـان تمامـاً عبـارة عن خيـوط مترابطة بنسـيج رائع ومحكم يدل على عظمة الخالق سبحانه!

وتُظهر لنا الصور الجديدة النسيج الكوني كما رسـمته أجهـزة السوبر كومـبيوتر لأول مـرة في القـرن 21 وهو يضم مئـات البلايين من المجــرات، وكل مجــرة تضم مئــات البلايين من النجوم، وتمثل النقاط المضيئة تجمعات المجـرات الضـخمة. وجميعها رتبها الله تعالى في هذا الكون الواسع ببنية نسيجية رائعة كالنسـيج المحبـوك، بل وأقسم بها فقـال: وَالسَّـمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ [الذاريات: 7]!

ولكن هـذه المقالة العلمية حــول ملامح النســيج الكــوني لا تكفي أبــداً، فقد تكــون نظرية وليست حقيقة علميــة، وأنا كمـــؤمن ينبغي أن أتأكد من أية معلومة جديـــدة وأتثبت من صــدقها قبل أن أقتنع بها لأبــني عقيــدتي على أسس علمية سـليمة. لـذلك بـدأتُ بمطالعة مئـات الأبحـاث حـول النسـيج الكـوني والخيـوط الكونية وجميعها صــدر منذ بضع سـنوات. ووجدت بأن جميع العلمـاء يؤكـدون هـذه الحقيقة بل هي من أهم الحقـــائق الواضـــحة والمؤكـــدة في القـــرن الحـــادي والعشرين.

مزيد من المعاني والدلالات

وبعد أن رأيتُ هذا النسيج بالمعـادلات الرقمية والصـور الـتي رسـمها الكمـبيوتر، أدركتُ بـأن القـرآن تحـدّث صـراحة عن النسيج الكوني الذي يفتخر علماء الغرب اليوم بأنهم هم أول من تحدث عنه.

ولكن هنالك المزيد من الدلالات والمعجـزات، فقبل الشـروع في تأمُّل المعـاني الغزيـرة الـتي تحملها هـذه الآية ينبغي أن نتأمل أولاً ما كشـفته أبحـاث القـرن الحـادي والعشـرين في

مجال العلوم الكونية.

فقد لاحظ العلماء في السنوات القليلة الماضية أن كل ماناره في هذا الكون لا يشكل إلا أقل من 5 بالمئة، وأن أكثر من 95 بالمئة من الكون يتألف من مادة غير مرئية لا نبصرها هي المادة المظلمة.

ونرى من خلال الصور المادة المظلمة ويمثلها في هذا النسيج الكوني اللون الأسود، وهي المادة التي تملأ المكان بين المجرات وتسيطر على توزع المادة في الكون المرئي، وقد رسمت هذه الصورة الكونية بواسطة السوبر كومبيوتر حيث تمثل كل نقطة فيها تجمع يضم آلاف المجرات وربما الملايين، فتأمل عظمة الكون وعظمة خالق الكون سبحانه وتعالى الذي أبدع هذا النسيج الرائع!

وتذكَّر معي هنا قولَ الحقّ تبارك وتعالى: ﴿فلا أُقْسِمُ بما تُبْصِرونَ * وما لا تُبْصِرونَ﴾ [الحاقة: 38-39]. فقد أنبأنا القرآن عن أشياء لا نبصرها بل وأقسم بها أن القرآن حقّ، ألا تتضمن هذه الآية إشارة غير مباشرة للمادة المظلمة التي يكتشفها العلماء اليوم؟

علماء الفلك يستخدمون تعابير القرآن!

ولكن السؤال: كيف استطاع علماء الغرب اكتشاف المادة المظلمة إذا كنا لا نبصرها؟ وكيف اكتشفوا النسيج الكوني؟ بل من أين جاءت هذه التسمية وهم لم يطّلعوا على القرآن؟

وهنا كان من الضروري القيام برحلة جديدة من رحلات البحث في أحدث ما وصل إليه العلماء في هذا المجال. وكانت المفاجأة المذهلة من جديد عندما قرأت تأكيداً على لسان العلماء الذين اكتشفوا هذا النسيج ورأوه للمرة الأولى يقولون فيه: "إننا لا نكاد نشك بأننا وللمرة الأولى نرى هنا خيطاً كونياً صغيراً في الكون المبكر".

ثم يقولون بعد ذلك بالحرف الواحد: "نحن نراه (أي هذا

الخيط) في زمن عندما كان عمر الكون فقط 2 بليون سنة، الفلكيون يمكنهم أن «يروا» توزع المادة في الكون المبكر".

ولكن الذي لفت انتباهي أن هؤلاء العلماء يستخدمون كلمة "نرى" بل ويضعون هذه الكلمة ضمن قوسين للدلالة على أنها كلمة جديدة الاستخدام مع العلم أن هذه الصور التي يرونها لهذا النسيج تعود إلى 13 بليون سنة!

وبعد تفكير طويل في السبب الذي جعل هؤلاء العلماء يصرون على رؤيتهم لملامح هذا النسيج، تذكرتُ قول الحق تعالى مخاطباً هؤلاء المنكرين لكتابه المجيد: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؟ [الأنبياء: 30].

فسبحان الله!! إن الله عز وجل يقول: ﴿أولم يرَ﴾ ، وهم يقولون «إننا نرى» وكأنهم يرددون كلام الله تعالى وهم لا يشعرون! والله يقول: ﴿الذين كفروا﴾ وهم يعترفون بإلحادهم وعدم إيمانهم بالقرآن.

والله تعالى يحدد الزمن بكلمة ﴿كانتا﴾ أي في الماضي، وهم يقولون: «الكون المبكر» والله تعالى يقول: ﴿رَتْقاً﴾.

وهم يعترفون بأنهم بدأوا برؤية أول خيط في هذا الرتق الكوني بقولهم: "خيطاً كونياً صغيراً". أليست هذه معجزة قرآنية ينبغي على كل مؤمن أن يتفكر فيها؟ بل ويفتخر بهذا الكتاب العظيم الذي هو بحق كتاب العجائب والحقائق، وليس كما يدّعون أنه كتاب أساطير وخرافات.

أفلا يؤمنون ؟

وأمام هذه المعجزة القرآنية، معجزة خطاب القرآن للكفار بأنهم سيرون هذا الرتق الكوني في بداية الكون، وهم قد رأوا هذا النسيج فعلاً من خلال أجهزتهم وحواسبهم.

أفلا يستيقنون بأن هذا القرآن هو من عند الله تعالى الذي خلقهم ويسَّر لهم هذا الاكتشاف وحدثهم عنه في كتابه قبل

أن يكتشـــفوه بأربعة عشر قرنـــاً! لقد اكتشـــفوا بداية هـــذا النسـيج وتـتراءى لهم ملامح هـذه الخيـوط الكونيـة، ولكننا نراهم يستمرون بالبحث عن هـذا الرتق الكـوني . لـذلك نجد البيان الإلهي في هذه الآية الكريمة يسـألهم: ﴿أَفَلا يؤمنـون﴾ ؟؟؟

وكما نعلم من معـاجم اللغة العربية كلمة الرتق تعـني السـدّ والفتق تعـني الشق وكلتا الكلمـتين تتضـمن إشـارة صـريحة إلى النسيج. والسؤال: أليس هؤلاء العلماء يردّدون هذه الآية وهم لم يطلعوا عليها؟

وعنـدما صـرح القـرآن بـأن الكـون كـان رتقـاً أي نسـيجاً متماسـكاً كالسد المـنيع، نـرى علمـاء هـذا العصر يؤكـدون وبشدة أنهم يرون هذا النسيج في المراحل المبكرة من عمر الكون!!

بل إن هؤلاء العلماء لا يشكّون أبـداً في وجـود هـذا النسـيج، حتى إنهم بدأوا يتساءلون عن الكيفية الـتي حُبكت فيها هـذه الخيـــوط الكونية العظمى. وتأمل معي هـــذا النســـيج الـــذي رسـمه الكومـبيوتر على شـبكة ثلاثية الأبعـاد لجـزء كبـير من الكون المرئي ونرى فيه بوضوح أن ما نبصره في هذا الكون أقل بكثير مما لا نبصره!

حقائق علمية يقينية

والآن ينبغي علينا أن نتعرّف على الكيفية الـتي جعلت علمـاء الفلك يجزمون بهذا النسـيج، بل ويجمعـون على ذلـك. وتبـدأ القصة عنـــدما بـــدأ علمـــاء الكـــون برسم خرائط للنجـــوم والمجرات ولاحظوا وجود مناطق تتجمع فيها هـذه المجـرات بما يسمى عناقيد المجرات ووجدوا بـأن هـذا الكـون يحـوي أكثر من مئتي ألف مليون مجرة!

وعندما توفرت إمكانية الحسابات الضخمة باستخدام السوبر كومبيوتر فكّر العلمـاء بإدخـال جميع المعلومـات اللازمة إلى هـذا الكومـبيوتر العملاق والـتي تتضـمن بيانـات رقمية حـول

موقع المجرة وبعدها عنا بالسنوات الضوئية وشدة إشعاعها، بالإضافة إلى معلومات حول التجمعات المجرية الضخمة ومعلومات أخرى تشمل أكثر من مليون مجرة.

وعندما نفّذ الكومبيوتر العمليات الرقمية كانت الصورة الناتجة تشبه النسيج، وهذا ما جعل العلماء مباشرة يطلقون عليها اسم النسيج الكوني.

والآن...

لو توجهنا اليوم بسؤال لهؤلاء العلماء الذين اكتشفوا هذا النسيج المعقد، وصرفوا بلايين الدولارات في سبيل رسم هذه الصورة الكونية، وقلنا لهم:

ما رأيكم أن الشيء الذي تكتشفونه في القرن الحادي والعشرين، قد تحدث عنه كتاب موجود منذ القرن السابع الميلادي!

إنهم سيسارعون للقول بأن ذلك سيكون مستحيلاً، والسبب هو أن التنبؤ بوجود بنية نسيجية للكون والحديث عن الرتق والفتق، يحتاج إلى عدسات مكبرة ومراصد تتوضع في مختلف أنحاء العالم، ويحتاج لآلاف الباحثين لرسم خرائط لملايين المجرات، وتحديد أماكنها وتحليل أطيافها.

وسوف يتطلَّب ذلك وجود أجهزة سوبر كومبيوتر عملاقة، وإلى تكاليف باهظة. وهذه الإمكانيات لم تتوفر إلا في نهاية القرن العشرين، فأنى لبشرٍ أن يتنبَّأ بنسيج كهذا؟؟

ونقول لهم نعم! إن قولكم صحيح لو كان القرآن من صنع بشر، ولكن هذا القرآن هو كلام ربّ البشر تبارك وتعالى! فهل تخشع قلوبكم أمام هذه المعجزة التي هي دليل مادي على صدق كتاب الله عز وجل وصدق رسالة الإسلام؟

إذن استمعوا معي إلى هذا البيان الإلهي: ﴿وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:

.[37

السماء تتكلّم

قرأت مقالة لأحد الكتّاب يهاجم الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، هذا الكاتب لم يرُق له أن يكون كتاب الله معجزاً من الناحية الكونية والعلمية. فهو يستغرب من أي حقيقة كونية يتحدث عنها القرآن تكون بعيدة عن المنطق المألوف. ويقول: إن كتّاب الإعجاز العلمي يفسرون الآيات كما يحلوا لهم ويحمّلون النصوص القرآنية غير ما تحتمل من الدلالات والمعاني والتأويل.

وسبحان الله! وبعدما قرأت هذه المقالة، وكعادتي تحوّلتُ إلى بعض المواقع العلمية لمتابعة أخبار الفضاء وجديد الاكتشافات، وبينما أقلب صفحات الإنترنت ظهرت لي مقالة غريبة بعنوان "الكون الناشئ يتكلم"!!

وظننتُ بادئ الأمر أن هذا عنوان قصة من قصص الخيال العلمي أو قصيدة شعر أو قصة قصيرة، ولكن وجدتُ بأن هذا الخبر يبثه أحد أشهر مواقع الفضاء في العالم www.space.com وصاحب هذا الاكتشاف الجديد هو أحد علماء الفضاء وهو البروفيسور مارك ويتل من جامعة فيرجينيا.

لقد أثبت هذا العالم في بحثه أن الكون عندما كان في مراحله الأولى أي في مرحلة الغاز والغبار والحرارة العالية، أصدر موجات صوتية. وقد ساعد على انتشار هذه الأمواج وجود الغاز الكثيف الذي يملأ الكون والذي عمل كوسط مناسب لانتشار هذه الأصوات.

وقد كان هذا الاكتشاف هو نتيجة لدراسة الإشعاع الميكرويفي لخلفية الكون في مراحله الأولى بعد الانفجار الكبير.

وقلت من جديد: سبحان الله! لماذا لا يُبدي صاحبنا كاتب الهجوم استغرابه لأمر كهذا؟ وهل يملك الكون لساناً

وحنجرة ليتكلم بهما؟ وليت هذا الكاتب يعلم بأن القرآن تحدث بصراحة عن هذا الأمر! بل سوف نرى أكثر من ذلك، فقد تحدث القرآن عن أشياء أكثر دقة وبعبارات مباشرة وواضحة ولا تحتاج لتأويل، سوف نأتي الآن بأقوال هؤلاء العلماء الماديين من أفواههم، ونرى في كتاب الله تعالى حديثاً عنها، ليكون هذا إعجازاً كونياً مذهلاً؟

أمواج صوتية تُسمع من بدايات الكون

جاء في هذا الخبر العلمي الذي نشرته العديد من المجلات المتخصصة والمواقع العلمية على لسان كاتب المقال وبالحرف الواحد:

"لقد توسّع الكون بسرعة بعد الانفجار الكبير، خلال فترة تدعى التضخم. فيما بعد، تابع الكون توسُّعه بشكل أبطأ مما أدى إلى تبرد الغاز وتكثـفه وتشكيله للنجوم. كل هذا الوقت، ساهمت تغيرات الكثافة في تشكيل خصائص الصوت المحدد من قبل فريق ويتل".

نرى من خلال تصريحات العلماء واكتشافهم أن الكون في مراحله المبكرة أي عندما كان في مرحلة الغاز الحار، وعندما بدأت النجوم بالتشكل من هذا الغاز الكوني، أصدر الكون صوتاً استمرّ حتى أصبح عمر الكون مليون سنة، وقد أمكن تحديد مواصفات هذا الصوت واتضح بأنه هادئ ومطيع، وبعد ذلك بدأت النجوم بالتشكل.

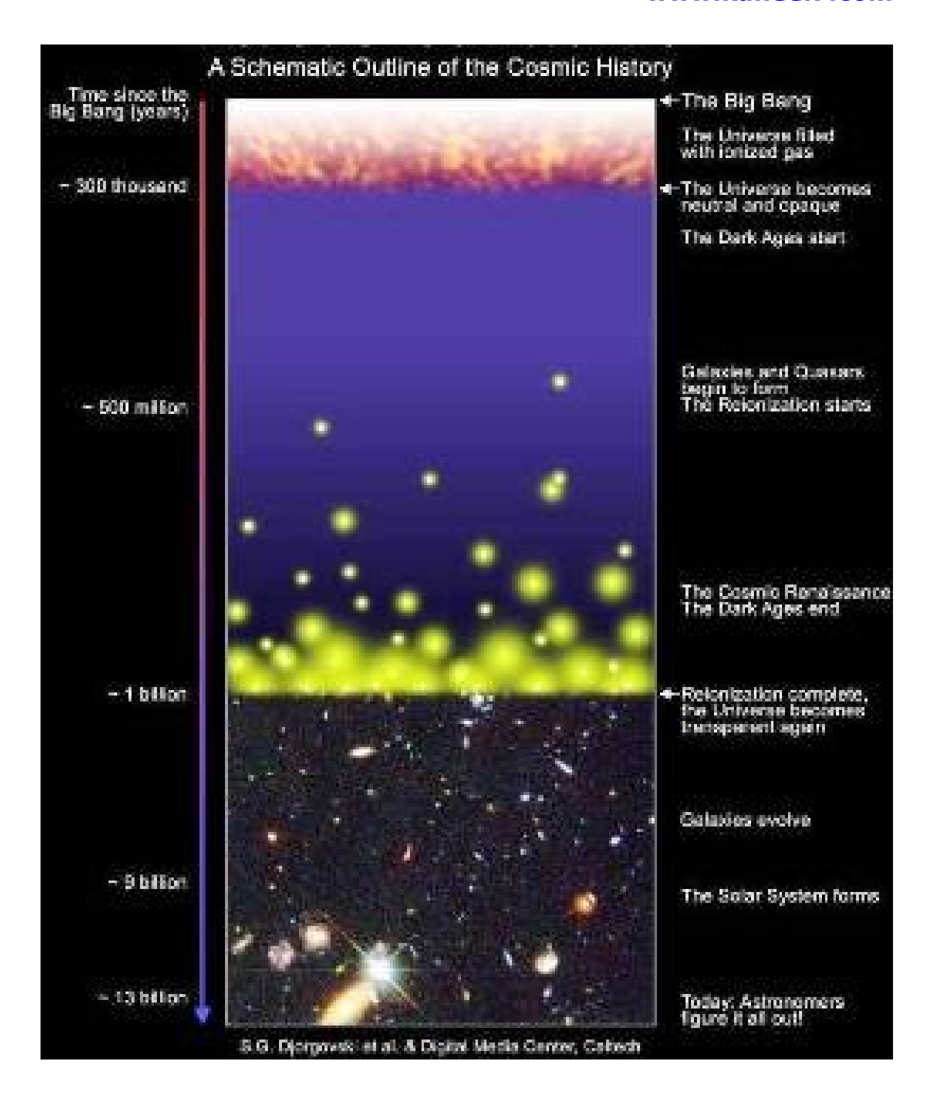
والعجيب أنني وجدتُ بأن كتاب الله تعالى قد تحدث عن هذه الاكتشافات قبل أربعة عشر قرناً في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 9-12].

لقد وجدتُ في هذا الكشف الكوني الجديد إجابة عن تساؤل شغلني لفترة طويلة في محاولة لفهم معنى قوله تعالى عن الكون في بدايات خلقه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [فصلت: 11].

فقد قرأت تفاسير القرآن ووجدتُ أكثرهم يؤكد بأن كلام السماء هنا هو كلام حقيقي. فهذا هو الإمام القرطبي رحمه الله تعالى يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾: "وقال أكثر أهل العلم : بل خلق الله فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد تعالى".

ذبذبات كونية هادئة

ولكن هذه الحقيقة العلمية هل هي حقيقة فعلاً، أم أنها نظرية وتوقع؟ وكما نعلم لا يجوز لنا أبداً أن نقول في كتاب الله عز وجل برأينا دون يقين وتثبّت. لذلك فقد تطلّب هذا الأمر مني جولة واسعة في عالم الأخبار العلمية الجديدة ووجدتُ بأن وسائل الإعلام الغربية قد تناولت هذا الخبر، وبالطبع لم يعارضه أحد لأنه مدعوم بالمنطق العلمي والعملي.



شكل (9) رسم يمثل مراحل تطور الكون من الانفجار الكبير حتى يومنا هذا. ويعتقد العلماء أن الكون بدأ قبل 13.7 بليون سنة بانفجار كبير ولا زال يتوسع حتى الآن، وهذا ما سبق به القرآن علماء هذا العصر بقوله تعالى عن توسع الكون: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾ [الذاريات: 47].



شكل (10) بدأ الكون بانفجار عظيم، ثم تباعدت أجزاؤه مشكلة المجرات والنجوم، والعجيب أن القرآن قد تحدث عن جميع هذه المراحل بدقة تامة، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30].

إن الذي يتأمل القوانين الرياضية التي أودعها الله تعالى في الدخان أو الغاز يجد ومن خلال ما يسمى بهندسة ميكانيك السوائل أن أي غاز عندما يتمدد ويكبر حجمه يصدر عن هذا التمدد موجات قد تكون صوتية. وذلك بسبب التغير في كثافة الغاز وحركة جزيئاته واحتكاكها ببعض مما يولد هذه الأمواج.

وهذا ما حدث فعلاً في بداية نشوء الكون عندما كان دخاناً،

فالتوسع والتمدد أدى إلى احتكاك وتصادم مكونات هذا الحساء الكوني الحار، وإطلاق هذه الأصوات التي تشبه حفيف الشجر. حتى إن بعض العلماء قد رسموا خطاً بيانياً يمثل هذه الذبذبات الكونية.

إن هذه الآية تتحدث بوضوح شديد عن كلام للكون وهو في مرحلة الدخان، ولكن لماذا سمَّى الله تعالى تلك المرحلة المبكرة من عمر الكون بالدخان؟ إن هذه الكلمة هي الأقدر على التعبير عن حقيقة الكون في ذلك الزمن. فالكون كان ممتلئاً بالغاز الحار جداً بالإضافة إلى الغبار الكوني، وكان هذا الغاز يشبه الغيوم.

وبالفعل نجد أن العلماء استطاعوا رؤية غيوم من الغاز حول أحد النجوم البعيدة جداً على حافة الكون المرئي، ويؤكدون أن النجوم تتشكل من غيوم الغاز هذه.

وتُظهر الصور الملتقطة لأحد النجوم أنه محاط بسحب من الدخان، ويبدو كالمصباح المنير، فلولا هذا المصباح الكوني لم نستطع رؤية الغاز والغبار حوله، وصدق الله تعالى عندما سمى هذه الأجسام البرَّاقة بالمصابيح فقال: ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [فصلت: 12]، فتأمل!

بكاء السَّماء

ولكن من الأشياء الغريبة والملفتة للانتباه والتي يصرح بها العلماء اليوم ما يقوله البروفيسور ويتل في خبر علمي:

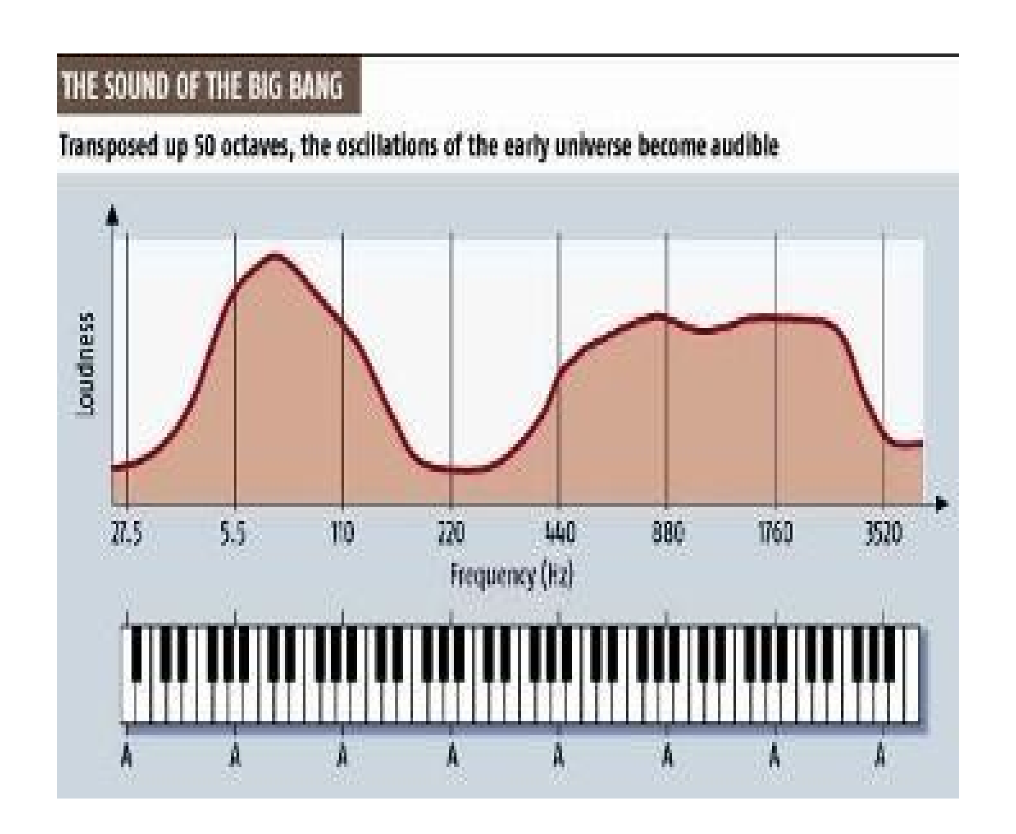
"يمكننا سماع البكاء الناتج عن ولادة الكون".

وتخطر ببالي آية تحدث فيها البارئ تبارك وتعالى عن بكاء السماء فقال: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان: 29]. ولكن الأعجب من ذلك أن هذه الآية التي تتحدث عن بكاء السماء وردت في سورة الدخان!!!

وهذا الخبر العلمي يعطي إمكانية حدوث الصوت والبكاء

وغير ذلك مما لم نكن نفهمه من قبل. وهذا يؤكد أن كل كلمة في القرآن هي الحق، بل لماذا لا يكون هذا الصوت الكوني هو امتثال لأمر الله تعالى؟

إن جميع العلماء اليوم يؤكدون أن توسع الكون وتمدد الغاز فيه أحدث هذه الأصوات ونتج عن هذا التمدد النجوم التي نراها اليوم. إذن المرحلة الثانية بعد مرحلة الغاز أو الدخان هي مرحلة النجوم، هذا ما يراه العلماء يقيناً.



شكل (11) رسم بياني للذبذبات الصوتية التي أصدرها الكون في مراحله المبكرة. ويظهر من خلال تحليل العلماء لهذه الذبذبات أن الكون كان هادئاً ومطيعاً، وهذا يوافق قول اله تعالى عن السماء في بداية الخلق: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ [فصلت: 11].



شكل (12) نجوم بعيدة وتظهر كالمصابيح المشعَّة التي تضيء ما حولها، حتى إننا نرى بواسطتها الدخان الكوني! ويقول العلماء عن هذه النجوم: لولاها لما أمكن رؤية ما حولها من الكون، إذن هي تعمل على إضاءة السماء من حولها، إذن هي مصابيح منيرة وهذا الاسم سبق به القرآن في قوله تعالى: ﴿وزينَّا السَّماء الدنيا بمصابيح﴾ [فصلت: 12].

من الدخان إلى المصابيح

ولكن ماذا عن المرحلة التالية للدخان في القرآن؟ ماذا يخبرنا كتاب الله تعالى؟ لو تأملنا الآية التي تلي آية الدخان مباشرة نجد قول الحق عز وجل: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 12]. وكما نرى الآية تتحدث عن تزيين السماء بالنجوم، وهذا ما

يقوله العلماء اليوم بالحرف الواحد كما رأينا!

فجميع العلماء يؤكدون أن المرحلة التالية للدخان هي مرحلة تشكل المصابيح أو النجوم شديدة اللمعان، وهذا ما أخبرنا به القرآن، عندما تحدث عن الدخان أولاً: ﴿وهي دخان﴾، ثم تحدث في الآية التالية مباشرة عن النجوم اللامعة: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾، فهل جاء هذا الترتيب بالمصادفة أم هو بتقدير الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾؟؟

المصابيح الكونية

فجميع علماء الفضاء يقررون أن الكون كان مليئاً بغز حار ثم تبرد وأول ما تشكل هو النجوم. والقرآن يقرر بأن السماء أو الكون كان دخاناً ثم زيَّن الله السماء بالنجوم وسماها المصابيح، وهنا لا بدّ من تساؤل:

لماذا لم يقل الله تعالى في هذه الآية بالذات: (وزينا السماء الدنيا بنجوم، أو كواكب، أو مجرَّات...)؟ لماذا ذكر المصابيح في هذه المرحلة من عمر الكون عندما كان دخاناً؟ ونحن نعلم من خلال معاجم اللغة العربية بأن المصباح يستخدم لإضاءة الطريق، ونعلم بأن ضوء هذه النجوم لا يكاد يرى، فكيف سمى القرآن هذه النجوم بالمصابيح، فماذا تضيء هذه المصابيح؟

هذا التساؤل تطلب مني رحلة شائكة في عالم الاكتشافات الكونية حول الكون المبكر وتشكل النجوم والدخان الكوني، ولكن الذي أدهشني بالفعل أن العلماء التقطوا صوراً رائعة للنجوم شديدة اللمعان أو الكوازرات.

وقد أدركوا أن هذه النجوم هي الأقدم في الكون تضيء الطريق الذي يصل بيننا وبينها، وبل بواسطتها استطاع العلماء دراسة ما حولها واستفادوا من إضاءتها الهائلة والتي تبلغ ألف شمس كشمسنا!!!

لذلك أطلقوا عليها اسماً جديداً وغريباً وهو "المصابيح الكاشفة" أي flashlights ، وسبحان الذي سبقهم إلى هذا الاسم فقال عن النجوم التي تزين السماء: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 12].

إن العلماء اليوم يسمون هذه النجوم "مصابيح" وقد سبقهم القرآن إلى هذا الاسم قبل 1400 سنة، فقال: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾، أليست هذه معجزة واضحة للقرآن؟ ألا نرى من خلال هذا الاسم التطابق الكامل بين ما يكشفه العلم من حقائق كونية يقينية، وبين كلمات القرآن الكريم؟ ولكي يكون كلامنا موثقاً وعلمياً وفيه ردّ على أولئك المشككين بالإعجاز العلمي والكوني لكتاب الله تعالى، سوف نأتي بأقوال العلماء بحرفيتها ومن مصادرها.

اكتشافات تؤكد صدق القرآن

لقد جاء في إحدى المقالات بعنوان: "متى تشكلت الأبنية الكونية الأولى" ويقولون بالحرف الواحد:

"بما أن النجوم اللامعة تُنير كل المادة على طول الطريق الواصل إلينا، فإن هذه النجوم تعمل مثل مصابيح كاشفة بعيدة تكشف خصائص الكون المبكر". وقد وجدتُ بأن جميع العلماء عندما يتحدثون عن هذه النجوم المبكرة البرّاقة يشبهونها بالمصابيح، حتى إن أحد هؤلاء العلماء يقول:

"إن هذه النجوم تعمل مثل المصابيح الأكثر لمعاناً".

إن هؤلاء العلماء عندما رأوا هذه النجوم البعيدة، رأوا تطابقاً تاماً بينها وبين المصابيح التي تضيء لهم الطريق، ولذلك سارعوا إلى تسميتها بهذا الاسم، وسبحان من سبقهم إلى هذا الاسم، كيف لا يسبقهم وهو خالق المصابيح وخالق الكون!

يرى العلماء اليوم هذه النجوم البراقة أو الكوازارات على

حافة الكون المرئي، وتبعد عنا آلاف الملايين من السنوات الضوئية، وتظهر تماماً كالمصباح المضيء في وسط الظلام الدامس. إن إضاءة هذا النجم أكبر من إضاءة المجرات التي تظهر من حوله. وتبارك الله العظيم الذي خلق هذه النجوم وزين بها السماء وسماها قبل هؤلاء العلماء بالمصابيح!

ونتساءل...

ما معنى هذا التطابق والتوافق بين ما يكشفه العلماء في القرن الحادي والعشرين وبين كتاب أُنزل قبل أربعة عشر قرناً؟ وما معنى أن يسمي العلماء الأشياء التي يكتشفونها تسميات هي ذاتها في القرآن وهم لم يقرءوا القرآن؟

إنه يعني شيئاً واحداً وهو أنكم أيها الملحدون المنكرون لكتاب الله وكلامه، مهما بحثتم ومهما تطورتم ومهما اكتشفتم، فسوف تعودون في نهاية الطريق إلى هذا القرآن، وسوف ترجعون إلى خالقكم ورازقكم والذي سخر لكم هذه الأجهزة لتشاهدوا خلق الله تعالى وآياته ومعجزاته، والذي تعهّد في كتابه بأنه سيُريكم آياته في الآفاق وفي القرآن حتى تستيقنوا بأن هذا القرآن هو كلام الله الحق. فهل تبيّن لكم الحقّ؟

إذن استمعوا معي إلى هذا البيان الإلهي المحكم: ﴿سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: 53-54].

الدخان الكوني والقرآن

يدعي بعض المستشرقين أن القـرآن مليء بالتعـابير العلمية الخاطئة ويقولـون: إن القـرآن قد أخطأ في كلمة (دخـان)!! وحجّتهم في ذلك أن التعريف العلمي للـدخان لا يتطـابق مع الحالة السـائدة في بداية الكـون، حيث كـان الكـون وقتها يتألف من عنصرين هما غاز الهيدروجين وغاز الهليوم.

وأن كلمة (دخان) الـواردة في قوله تعـالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ **دُخَانٌ** فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11]، غـير دقيقة من الناحية العلميـة، وبالتـالي هـذا يثبت أن القـرآن لا يمكن أن يكـون صادراً من عند الله تعالى لأن الله لا يخطئ!

ونجـدهم يقولـون: إن كلمة (غـاز) هي الأنسب من الناحية العلمية من كلمة (دخـان). وتـذكرتُ الانتقـادات الـتي يوجّهها أعـداء الإعجـاز العلمي لهـذه الآيـة، بل ويشـككون في مصداقيتها ويقولون: إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو من كتب هـذه الآية وأخطأ في وصـفه للكـون المبكر بكلمة (دخان)!

أستغفرك يـارب من قـول هـؤلاء فأنا لا أشك أبـداً بـأي كلمة من كلمات كتابك المجيد. وثقتي بما في القرآن هي أكبر من ثقتي بما أراه وألمسه، لأن الحواس قد تخطئ ولكن رب هذا الكـون سـبحانه لا يُخطئ. وقلت في بداية الأمـر: بما أن القرآن نزل في بيئة صـحراوية فقد خـاطب النـاس وقتها بما يدركون. وكلمة (غـاز) غـير موجـودة في اللغة العربيـة، لأنها كلمة أجنبيـة، ولـذلك يمكن التعبـير عنها بكلمة (دخـان)، إذن المسألة محسومة.

ولكن تذكرت على الفور بأن القرآن لم ينزل للعرب وحدهم، بل نـزل لكل البشـر! ولم ينْـزل لبيئة محـددة أو عصر من العصور، بل نزل لكافة العصور ولكل زمـان ومكـان! فما هو العمل؟ لقد بـدأتُ رحلة من البحث بين المكتشـفات الكونية الجديدة.

ولكن لإقناع هؤلاء المشككين كان لا بـدّ من تأكيد من علمـاء الغرب أنفسهم يعـترفون فيه بـأن الكـون كـان دخانـاً، وهـذه مهمة صـعبة جـداً ولكن ليس هـذا على الله بعزيـز. فهو سـبحانه القائـل: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النسـاء: 141]. وقد منّ الله علينا أن وجـدنا بالفعل جميع علماء الغرب الذين لم يقرأوا القرآن ولم يطلعـوا على

هـذه الكلمة فيه يؤكـدون بل ويفتخـرون باكتشـافهم الجديد وهو ما أسـموه بـالحرف الواحد "الـدخان الكـوني"!!! ولكن كيف بدأت القصة؟

غاز أم غبار أم دخان؟

لقد اكتشف العلماء أن الكون في مراحله الأولى امتلأ بالغـاز gas، وخصوصـاً غـاز الهيـدروجين وغـاز الهيليـوم، ولكنهم اكتشفوا بعد ذلك غباراً كونياً cosmic dust ينتشر بين النجـوم، ويقولون إنه من مخلفات الإنفجارات النجمية.

ولكن الغـاز يختلف عن الغبـار ويختلف طبعـاً عن الـدخان. فكيف يمكن التوفيق بين العلم والقرآن، ونحن طبعـاً نـرفض أن نحمّل الآية ما لا تحتمله من المعـاني والـدلالات، لكي لا تكون وسيلة للطعن في هذا الدين.

وبدأتُ جولة في عالم المكتشـفات الكونية وكـانت المفاجـأة عندما قـرأت تصـريحاً لأحد علمـاء الغـرب يعـترف فيه أن ما كشفوه من غبار كـوني لا يمتُّ بصـلة للغبـار الـذي نعرفه ولا يشـبهه أبـداً، وأن هـذا الغبـار أشـبه ما يكـون بـدخان السيجارة!!!

فهـذا هو الـدكتور دوغلاس بـيرس يقـول بـالحرف الواحـد: "الغبار الكوني- والـذي لايشـبه الغبـار المـنزلي- في الحقيقة يتـألف من حبيبـات صـلبة دقيقة (وغالبـاً من الكربـون والسيليكون) تسبح في الفضاء بين النجـوم، وحجمها مشـابه لحجم دخان السيجارة".

ولـذلك وجـدتُ بـأن العلمـاء يسـمُّون هـذا الغبـار بالـدخان الكـوني، بعد أن وجـدوا أنه لا يشـبه الغبـار، بمعـنى آخـر: التسمية التي أطلقها علماء الفلك خاطئة! ولو تأملنا الأبحاث الصـادرة حـديثاً نجد أنها تؤكد على هـذه التسـمية، بل هنالك من العلمـاء من يصـرح بـأن أفضل وصف لحقيقة الكـون المبكر هي كلمة (دخان).

أفضل كلمة لوصف الكون المبكّر هي الدخان

وهذه إحدى المقالات العلمية الحديثة يصرح كاتبها بالحرف الواحد:

"ذرات الغبار الممزوج بالغاز دقيقة، وحجمها يساوي جزء من الميكرون والميكرون هو جزء من ألف من الميليمتر فقط، ولذلك فإن أفضل وصف لها "دخان". وسبحانك يا من أحكمت آيات كتابك العظيم! يحتار العلماء في مصطلحاتهم وتعابيرهم، فتارة يقولون عن الكون البدائي "غاز" ثم تتطور معرفتهم بالكون فيقولون "غبار" ثم بعد ذلك يتضح لهم أن الغبار لا يشبه الغبار الذي نعرفه، ويدركون بعد سنوات طويلة بأن الكلمة الأفضل لوصف حالة الكون في مراحله الأولى هي "دخان" أي smoke ، بينما كتاب الله تعالى أعطانا الكلمة الأنسب منذ 1400 سنة ولم تتغير!

في البداية ظن العلماء أن الكون في مراحله المبكرة كان يحوي الغاز فقط أي غاز الهيدروجين والهيليوم، لذلك أطلقوا عليه كلمة gas. لقد اكتشف العلماء بعد ذلك أن الكون مليء بالغبار، وليس الغاز فقط. لذلك أطلقوا عليه اسم آخر هو الغبار الكوني cosmic dust . وأخيراً وبعد أن فحص العلماء الغبار الكوزني، تبين أنه لا يشبه الغبار وأن هذه التسمية خاطئة، وأنه يشبه إلى حد كبير الدخان في حجمه وتركيبه، فأطلقوا عليه اسم الدخان smoke .

وهذا الاسم الأخير ثبت لهم يقيناً بعدما استطاعوا أن يحللوا عينات ملتقطة حديثاً من الغبار الكوني، وتبين أنها تعود إلى بلايين السنين وهي تمثل الكون في مراحله الأولى، وهذا يتطابق مئة بالمئة مع قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾، فهل هذه مصادفة أم معجزة؟!



شكل (13) الدخان الكوني كما رآه العلماء حديثاً بأجهزتهم الفلكية المتطورة. هذا الدخان يتكون من جزيئات تشبه إلى حد كبير الدخان الذي نعرفه على الأرض مثل دخان السيجارة، ويقول العلماء إن أفضل كلمة يمكن أن نصف به هذا المشهد هي "دخان" فسبحان الذي سبق هؤلاء العلماء إلى هذا الاسم فقال: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾.



شكل (14) الكون مليء بالدخان وعندما التقط العلماء ذرات من هذا الدخان وحللوه في مخابرهم صرحوا بأن أفضل كلمة يمكن أن يعبروا بها عن هذه الذرات الكونية هي «دخان»، بما يتطابق مئة بالمئة مع الكلمة القرآنية. وهذا يدل على أن القرآن الكريم قد أعطانا الكلمة الدقيقة مباشرة.

لحظة حوار

ونريد أن نسأل أولئك الذين يظنـون بـأن الإعجـاز العلمي هو تحميل للآية معاني لا تحتملهـا، وإلصـاق مفـاهيم مصـطنعة لا تناسب كلمـات القـرآن، وأن كتَّاب الإعجـاز العلمي يلـوون أعنـاق النص القـرآني ليتناسب مع الكشـوفات الجديـدة، ونقول:

إن كلمة smoke تعـني تمامـاً ﴿دُخَـان﴾، وهي الكلمة الدقيقة لوصف حالة الكـون البـدائي قبل بلايين السـنوات، وهـذه الكلمة موجـودة في القـرآن بحرفيتهـا، أليست هـذه معجـزة مبهـرة لكتـاب الله تعـالى؟ وهل نحن نحمل الكلمة فـوق معناها أم أن هذا هو معناها؟

حـتى إن علمـاء الفضـاء ومن على أكـبر مواقع الفضـاء في العالم يدرسون هذا الغبار الكوني ويقولون بالحرف الواحد:

"ذرات الغبـار الكـوني صـغيرة جـداً. ولكي نفهم حجمها وقوامهـا، فـإن أفضل طريقة هي أن نقارنها بـدخان السيجارة".

إذن جميع العلمـاء يصـرحون بـأن كلمة الـدخان هي الأفضل لفهم هـذا الغبـار الكـوني، الـذي سـاد الكـون قبل 10 بليـون سنة. وهـذا الـدخان فيه دليل قـوي على صـدق قوله تعـالى: ﴿أَوَلَمْ يَـرَ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنَّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَـاءِ كُـلَّ شَـيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُـونَ﴾ [الأنبياء: 30].

ففي هذه الآية تأكيد من رب العـزة سـبحانه بـأن الكـون كله كان نسيجاً محبوكـاً بشـدة ثم فتقه الله تعـالى، وما الـدخان الذي يكتشفه العلماء إلا بقايا الانفجار الكوني الكبير وهو من نواتج الفتق الذي حدثنا عنه كتاب الله تعالى قبل أن يكتشفه العماء بأربعة عشر قرناً.

ولكن هل هذه حقائق يقينية أم نظريات ؟

نحن يجب ألا ننقـاد وراء أي اكتشـاف حـتى نتأكد من مصداقيته وحقيقته، ولا نقحم في كتاب الله إلا ما ثبُت يقينـاً. لـذلك قد يسـأل سـائل: كيف يتأكد العلمـاء من معلومـاتهم، وكيف عرفوا أن هذا الغبار هو في حقيقته دخان؟

وهذا يقودنا لعرض الاكتشاف الذي تم مـؤخراً حيث اسـتطاع العلمـاء التقـاط بعض ذرات الـدخان الكـوني من الفضـاء،

وتحديداً على حدود كوكب المشتري . وقاموا بتحليله بأجهزتهم ورؤيته وتصويره ومعرفة كل شيء عنه بدقة مذهلة، وهنا لا يمكن لأحد أن ينكر هذه التجارب أبداً.

وجاء في نتيجة التحليل المخبري لهذا الغبار، وبالحرف الواحد:

"حبيبات الغبار بين النجوم والكواكب يتراوح حجمها بين [0.6-1.4]ميكرون، وهي ملتقطة من الغلاف الجوي للمشتري، أو من منطقة التأثير المغناطيسي وفقاً للدراسة. حبيبات كهذه أصغر من قطر شعرة الإنسان وهي بحجم ذرات الدخان".



شكل (15) جدار من النجوم والدخان الكوني يبلغ طوله 1500 سنة ضوئية، هذا الجدار يوجد منه الملايين في الكون جميعها تقوم من دون أعمدة، وهذا أحد البنى الكونية التي حدثنا القرآن عنها في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: 2].



شكل (16) يقول العلماء اليوم بأن النجوم شديدة اللمعان هي أول نجوم تكونت بعد مرحلة الدخان الكوني. وهذا الشكل يمثل ولادة النجوم الأولى من الدخان، والعجيب أن القرآن هو أول كتاب تحدث عن هذا التسلسل الزمني لخلق النجوم من الدخان، يقول تعالى: ثم استوى إلى السماء وهي دخان ثم يقول في الآية التالية مباشرة: وزينا السماء الدنيا بمصابيح.

إن الآية الكريمة تتحدث عن مرحلة مبكرة من عمر الكون في بدء الخلق، عندما كان الغاز الحار يملأ الكون، وهذا ما نجده في قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ.

لقد عبرت الآية أيضاً عن حقيقة الكون وقتها بكلمة واحدة

هي: ﴿**دُخَانٌ**﴾، وهذه الكلمة تعبر تعبيراً دقيقاً عن حقيقة تلك المرحلة من عمر الكون واختصرت الجمل الكثيرة التي يطلقها العلماء للتعبير عن تلك المرحلة بكلمة واحدة فقط. وهذا إعجاز مذهل للقرآن الكريم في دقة كلماته وتوافقها مع العلم الحديث والحقائق اليقينية.

القرآن سليم من الناحية العلمية

وهنا يثبت يقيناً بأن القرآن سليم من الناحية العلمية، فقد وصف حالة الكون بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: 11]. وليت هؤلاء العلماء قرءوا القرآن ووفروا على أنفسهم عناء البحث والدراسة وتغيير المصطلحات.

بل نجد أن العلماء في القرن الحادي والعشرين قد بدءوا فعلاً باستخدام الكلمات القرآنية ذاتها، مثل كلمة (فضاء) والتي اتضح فيما بعد أنها لا تعني شيئاً، فلا وجود للفراغ في الكون، بل كله بناء محكم. وهكذا بدءوا يستخدمون كلمة (بناء) أي building.

والسؤال: هل يمكن أن تكون هذه اللفتة الإعجازية في كتاب الله جل جلاله معجزة يعقلها ويتدبرها كل منصف وعاقل؟ وهنا نذكر كل من لم يخشع قلبه أمام عظمة هذا القرآن وأمام ما أنزل الله من الحق، نذكرهم بنداء الله تعالى لهم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 16].

وصدق الله العظيم عندما قال مخاطباً كل مشكك بهذا القرآن وبمنَزّل القرآن جل وعلا: ﴿سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: 53].

نتائج البحث ووجه الإعجاز

1- بما أن جميع المفسرين وجميع علماء اللغة يُجمعون في تفسيرهم على أن أصل كلمة ﴿الحُبُك﴾ جاء من النسيج المحبوك، فيكون القرآن بذلك هو أول كتاب تحدث عن هذا النسيج الكوني وربطه بالسماء في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: 7].

وفصَّل القول عن الآلية الهندسية التي جعلت هذا الرتق المنسوج ينفتق وينشق في قوله تعالى مخاطباً الكفار بما سيرونه بأعينهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؟ [الأنبياء: 30].

2- ومن النتائج المهمة لهذا البحث وجود إشارة واضحة في كتاب الله تعالى إلى أن ما نراه الآن في الكون من مجرات لا يمثل شكلها اليوم، بل هو الشكل الذي كانت عليه في الماضي، في قوله تعالى في هذه الآية: ﴿كانَتَا﴾: أي في الماضي. وهذا سبْقٌ علمي للقرآن في الحديث عما يسميه العلماء اليوم «الكون في مراحله المبكرة».

3- الكلمات التي يستخدمها القرآن دقيقة جداً من الناحية العلمية، والدليل على ذلك أن علماء الفلك في القرن 21 بدأوا يستخدمون نفس الكلمات القرآنية في أبحاثهم. فكلمة ﴿الحُبُك﴾ وكلمة ﴿رَتْقاً﴾ وكلمة ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ جميعها تحمل إشارة مباشرة للنسيج المحبوك، والعلماء يستخدمون هذا الاسم للتعبير عن الكون، أي النسيج الكوني.

4- أكدت الآية أن الذين سيرون هذا الرتق الكوني هم من الكفار الذين لا يؤمنون بالقرآن فوجّهت الخطاب لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهنا نتساءل من جديد ونطرح سؤالاً على كل من يظن أن القرآن من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم:

كيف استطاع هذا النبي الأميّ عليه صلوات الله وسلامه أن يتنبّأ بأنه سيأتي أناس بعده بألف وأربع مئة سنة وهم من غير

المؤمـنين وأنهم سيكتشـفون بنية الكـون النسـيجية، وأنهم سيرون خيوط هذا النسيج الكـوني؟ بل لو كـان محمد صـلى الله عليه وسلم هو من لفّق هذه الآيات فلماذا لم ينسب هذا الاكتشـــاف العظيم لنفسه أو لقومـــه، بل نســـبه لأعـــداء الإسلام؟؟؟

وجوه متعددة لإعجاز الآيات

في الآيات السابقة عدَّة معجزات لا يمكن إنكارها، وسوف نناقش هذه المعجزات دون أي تأويل، بل سنبقى في المعنى المباشر والواضح للآيات. وسوف نرى أن هذه المعاني شديدة الوضوح، وبما يتناسب مع الاكتشافات الكونية الحديثة.

تحدث القرآن عن قول السماء في ذلك الوقت وطاعتها لخالقها، وقد يستغرب البعض من هذا الأمر، فكيف تتكلم السماء؟ ولكن الأبحاث والاكتشافات الجديدة أثبتت إمكانية إصدار الأمواج الصوتية من الكون في مرحلة الدخان أو الغاز.

لقد حددت الآية المرحلة التي تكلمت فيها السماء، وهي مرحلة الدخان، وهذا ما اكتشفه العلماء اليوم. فهم وجدوا بأن الكون في مرحلة الغاز الحار والغبار أصدر موجات صوتية نتيجة تمدده.

المنحنيات البيانية التي رسمتها أجهزة الكومبيوتر لكلام الكون جاءت متناسبة مع قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. فهذه المنحنيات لم يظهر فيها أية نتوءات حادة أو عنف أو تمرد، بل كما أكد العلماء كان صوت الكون هادئاً وشبهوه بصوت الطفل الرضيع!

يقول العلماء: إن المرحلة التالية للدخان (أو الغاز الحار والغبار) كانت تشكل النجوم اللامعة أو الكوازارات، وعندما درسوا هذه النجوم وجدوها تعمل عمل المصابيح فهي تكشف وتنير الطريق الواصل إلينا ويمكن بواسطتها رؤية

الأجسام المحيطة بها.

والإعجاز الأول هنا يتمثل في السبق العلمي للقرآن في تسمية هذه النجوم بالمصابيح، بما يتطابق مئة بالمئة مع ما يراه العلماء اليوم. أما الإعجاز الثاني فيتمثل في أن القرآن حدد المرحلة الزمنية التي تشكلت فيها هذه النجوم وهي المرحلة التالية لمرحلة الذخان.

إننا نجد في قول الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾، حديثاً عن زينة السماء بالنجوم البراقة، وهذا ما يتحدث عنه العلماء اليوم. فهم يشبهون هذه النجوم والمجرات والتي تشكل النسيج الكوني باللآلئ التي تزين السماء!! وهذا سبق علمي للقرآن في استخدام التعابير الدقيقة والمتوافقة مع الواقع.

لو تأملنا النص القرآني لوجدنا بأن الخطاب فيه موجه للكفار الذين لا يؤمنون بالخالق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 9-12].

وهذا يشير إلى أن هؤلاء الملحدين هم من سيكتشف هذه الحقائق الكونية، وهم من سيراها، وهذا سبق علمي للقرآن في تحديد من سيرى هذه الحقائق، لذلك وجَّه الخطاب لهم.

ردّ على منتقدي الإعجاز العلمي

في هذه الوجوه المتعددة ردّ على دعوى أولئك الذين يهاجمون الإعجاز العلمي لكتاب الله تعالى، وردّ على كل من يعتقد بأن المسلمين ما داموا متخلفين علمياً وتقنياً، فلا يجب عليهم أن يبحثوا في الإعجاز العلمي! وردّ على من

يقول بأن المسلمين ينتظرون دائماً الغرب الملحد ليقدم لهم الحقائق والاكتشافات العلمية، ثم ينسبوا هذه الاكتشافات للقرآن.

بل على العكس من ذلك! ففي اكتشافات الغرب لهذه الحقائق وحديث القرآن عنها بدقة مذهلة وخطاب القرآن لهؤلاء الملحدين، في كل ذلك أكبر دليل على صدق كتاب الله تعالى، وأنه كتاب حقّ. ولو كان هذه القرآن من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، لنسبَ هذه الاكتشافات لنفسه، لماذا ينسبها لأعدائه من الملحدين ويخاطبهم بها؟؟

وفي نهاية هذا البحث لا نملك إلا أن نسجد خشوعاً أمام عظمة كتاب الله تعالى وأمام عظمة إعجازه، ولا نملك إلا أن نردّد قول الحق جلّ وعلا: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آَيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 93].

المراجع العربية

1- القرآن الكريم.

2- التفاسير المعروفة: تفسير الإمام ابن كثير، تفسير الإمـام الطبري، تفسير الإمام القرطبي رحمهم الله تعالى.

3- معاجم اللغة العربية: لسـان العـرب، الصـحاح، القـاموس المحيط.

4- أبحاث الدكتور زغلول راغب النجار.

5- أبحاث الشيخ عبد المجيد الزنداني.

6- أبحـــاث موقع موســـوعة الإعجـــاز العلمي في القـــرآن والسنة، وعنوانه على شبكة الإنترنت: **www.55a.net**

7- أبحاث الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنّة، وعنوانها على شبكة الإنترنت: **www.nooran.org**

8- أبحاث علمية على موقع المؤلف "أسرار إعجـاز القـرآن"
www.kaheel7.com

المراجع الأجنبية

فيما يلي أهم المقالات والأبحاث الكونية الصادرة حديثاً والتي تناولت الاكتشافات العلمية المتعلقة بالبناء الكوني والنسيج الكوني والدخان الكوني والمادة المظلمة حياة النجوم وتطور الكون ونشوئه ومراحل خلق النجوم والمجرات:

1- مقالة بعنوان (لمحة عن النسيج الكوني) لثلاثة من علماء الغرب الأكثر شهرة في هذا المجال وهم: عالم الفلك بول ميلر من معهد الفيزياء الفلكية بألمانيا وجون فينبو من نفس المعهد، وبارن تومسون من معهد الفيزياء والفلك بالدانمارك، على موقع المرصد الأوروبي الجنوبي بألمانيا على الرابط: http://www.eso.org/outreach/press-rel/pr-2001/pr-11-01.html

2- خبر علمي بعنوان: "كيف تشكل البناء الكوني" جائزة كارفورد لعام 2005 والصادرة عن الأكاديمية السويدية الملكية للعلوم، والمقالة هي للباحثين الثلاثة: جيمس كان وجيمس بيبلس من جامعة برينستون الأمريكية، ومارتين ريز من معهد الفلك في جامعة كامبريدج البريطانية. هذه المقالة متوفرة على الرابط:

http://www.kva.se/KVA_Root/files/newspics/DOC_2005217592_1296017045_popcrafoord05eng.asp

3- مقالة بعنوان: "متى تشـكلت الأبنية الكونية الأولى": على موقع وكالة ناسا للفضاء على الرابط:

http://map.gsfc.nasa.gov/m_uni/uni_101firstobj.html

4- مقالة بعنوان: "الانفجار الكبير تكلّم مثل همهمة عميقة" على الرابط:

http://www.newscientist.com/article.ns?id=dn4320

5- انظر مقالة بعنوان: "الكون بدأ بفحيح وليس انفجار" على الرابط:

http://www.newscientist.com/article.ns?id=dn5092

6- مقالة بعنوان: "سماع بكاء ولادة الكون" على أخبار BBC في خبر منشور بتاريخ 23-6-2004 والرابط هو:

http://news.bbc.co.uk/1/hi/sci/tech/3832711.stm

7- انظر مقالة بعنوان "المادة المظلمة في قلب المجرّات" على موقع الكون اليوم:

http://www.universetoday.com/am/publish/dark_matter_concentrated.html

8- مقالة بعنوان: "كيف يتم حبك الخيوط في النسيج الكوني" How Filaments are Woven into the Cosmic Web متوفرة على الرابط: http://arxiv.org/abs/astro-ph/9512141

9- مقالة بعنــوان: "الانفجــارات النجمية الدخانية تحل ســرّاً عمره 10 بليون سنة" متوفرة على الرابط:

http://outreach.jach.hawaii.edu/pressroom/2003_casa/

10- انظر مقالة بعنــوان: The Explosive Origin of Dust! على الرابط:

http://www.astro.cf.ac.uk/groups/cosmo/SNe/sne.html

المهندس عبد الدائم الكحيل

باحث في إعجاز القرآن والسنَّة

المواليد : 1 / 5 / 1966 مدينة حمص ، سورية .

الوضع العائلي : متزوج ولي ولدان فراس وعلاء .

اللغات : العربية والانكليزية .

المؤهل العلمي : هندسة الميكانيك عام 1995 ، دبلوم هندسة السوائل عام 1997 ، دبلوم التأهيل التربوي عام 2000 ، من جامعة دمشق . بالإضافة إلى بعض الدراسات الخاصة في التفسير والقراءات واللغة العربية .

النشاط الفكري : قراءة القرآن الكريم وحفظه وتدبّره وتأمل آياته من الناحية البلاغية والعلمية والرقمية . ومتابعة أحدث الأبحاث العلمية في علوم الرياضيات والفلك والهندسة والأرض والبحار وغيرها من حقول العلم . وكذلك تأمُّل الأحاديث النبوية الشريفة وتطابقها مع العلم الحديث .

الأهداف : إثبات أن القرآن الكريم لا يناقض العلم أبداً ، وأن وجود الحقائق العملية والرقمية الثابتة في كتاب الله هو برهان مادي على أن الإسلام دين العلم والحوار والإقناع . وكذلك الدعوة إلى الله تعالى بأسلوب علمي بعيداً عن التعصب ، وخطاب غير المسلمين بلغة العلم ، بهدف إظهار الصورة الصحيحة للإسلام .

الكتب المنشورة : صدر لي أحد عشر كتاباً في الإعجاز الرقمي للقرآن الكريم ، وعدد من الكتب والكتيّبات في الإعجاز العلمي في القرآن والسنَّة ، بالإضافة إلى عدد من الأبحاث والمقالات في مختلف وجوه الإعجاز القرآني .

يمكن الاتصال بالمؤلف على الرقم : 00963 95 652879

الموقع الإلكتروني للمؤلف : www.kaheel7.com